العلاَّمة عبداللَّه گنون

يتحدث عن نفسه

من خلال كتابه

«مذكرات غير شخصية»

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرات غير شخصية

[illegible]

الورقة الأولى

من كتاب (مذكرات غير شخصية)

بخط العلامة عبدالله گنون

العلامة عبدالله كنون يتحدّث عن نفسه

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أفكر يوماً في كتابة مذكرات شخصية عن حياتي لسبب بسيط، وهو أنني لم أعتبر قط أن حياتي تستحق التدوين بالتفصيل الذي تستدعيه كتابة المذكرات، إلا إذا كنت سأُثقل حواشيها بالتوافه التي لا قيمة لها، أو الادعاءات العريضة التي لا نصيب لها من الحقيقة، كما يفعل بعضهم، وهو الأمر الذي جعلني لا أرغب في قراءة بعضها، مما يقع في وهلي أنها ربما تكون ذات جدوى مثل المذكرات السياسية أو العسكرية التي كتبت عن الحربين العالميتين (١٩١٤ و١٩٣٩)، فأجدني أنصرف عنها لما ألمسه فيها من التزيُّد ومخالفة الواقع.

وأمر آخر، هو ما جدّ في كتابة التراجم مما يسمونه بالتحليل النفسي وما يتضمنه من التلفيقات والافتراضات التي تصبح أحكاماً هدفها الوحيد تحطيم الشخصية الإنسانية للمترجم لمجرد أنه مرض في صغره مثلاً بمرض معين أو



أحبّ في شبابه شيئاً ما ثم نُزع منه، وما شابه ذلك مما يجيء في كلامه عرضاً أو يتحدث به عنه زميل له أو فرد من أفراد أسرته ربما كان هو لا علم له به ولا صلة بينه وبين ما نسباه إليه، بل لعله من انعكاسات التصورات الذاتية التي يثيرها فضول المحللين النفسيين فيؤدي الأمر إلى ما يعبر عنه المثل العربي القائل: «رمتني بدائها وانسلت»، وعلله المتنبي في هذا البيت الشعري:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

هذا إذا لم يكن المحلل من مريدي فرويد ونظرياته الجنسية وإلا فاقرأ على مترجمه آية: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، وذلك لأدنى إشارة أو لفظة ترد في كلامه، ولكأنما عناه الشاعر بقوله:

وليس صديقاً من إذا قلت لفظة

توهم في أثناء موقعها أمرا

والمفروض أن الذي يترجم لشخص ما يعتبر كصديق له، ولا يقال: إن في كلامي هذا مبالغة، ففي واقع الأمر بلغ الاستهتار بأصحاب هذا المذهب إلى حد اتهام المسيح عليه السلام بأنه كان له صديقات وأن بعضهن حملن منه، وكان في خطة شركة بريطانية إخراج شريط سينمائي عن حياة المسيح الشخصية يتضمن هذا البهتان، مما دفع أسقف لندن إلى الاستنجاد بشيخ الأزهر وطلب تدخله واحتجاجه باسم المسلمين لإيقاف العمل في هذا الشريط... ولهذا



كان إفتاؤنا بمنع تمثيل النبيّ ﷺ وظهوره في شريط الرسالة؛ لأنه إذا فعل النصارى هذا بالمسيح فما ظنك بما يفعلونه بمحمد عليه السلام.

إن علماءنا وكتّاب التراجم عندنا لم يكونوا يتجسسون على مترجميهم ويطلقون الفرضيات التي لا أساس لها إلا سوء الظن لينالوا من عرضهم وسلوكهم بدعوى تحليل شخصياتهم وتعبير ما اشتبه من حياتهم، إنهم كانوا ينقدون ولكن نقدهم إنما ينصب على الأقوال والأعمال التي صدرت منهم فعلاً لا على ذواتهم وأشخاصهم بالتكهنات والتخرصات، ومن الغريب أن أصحابنا لا يشتغلون بذوي الدعاوى الباطلة الذين ينتحلون ما ليس لهم، وينسبون لأنفسهم كل فضل، ويجردون غيرهم من كل مزية كأن تطاولهم هذا عندهم حقيقة يعجزون عن التشكيك فيها وكأن تفتح هؤلاء المدعين يمت بنسب إلى تحليلاتهم فهم يرعون على هذه الرحم التي بينهم أن يمسوها بسوء لأن الهدف واحد وهو الهدم والتحطيم. ألا يؤيد هذا ما يقوله بعض الباحثين عن مؤسسي تلك المذاهب من أنهم يعملون على خراب العالم وتدمير الإنسانية؟ ونقف عند هذا الحد وإن كان في الكلام بقية لأننا إنما نريد أن نعلل ما قلناه من عدم الميل إلى المذكرات الشخصية، بطبيعتنا، وهو ما لم يقبله منا الذين يلحُّون علينا بكتابة مذكرات عما شهدناه أو شاركنا فيه من أعمال وتحركات على عهد الحماية البائدة لا سيما ما يتعلق منها بالكفاح الوطني وإعداد الشعب مادياً وروحياً لمواجهة خصوم البلاد، ولو للحقيقة



والتاريخ، وهذا لا يستلزم التعرض للأحوال الشخصية كما يقولون، ولو صحّ ذلك لخلت كل المذكرات من المداخلات الشخصية، وكيف نفصل بين المذكرات وصاحبها وهو الذي يحكي عن ملابسته للأحداث ويخبرنا بالوقائع كما شهدها. إن التجريد هاهنا غير ممكن فهو بمثابة التفصي من المسؤولية وما أحراه أن يكون نكولاً لا شهادة.

نعم حين تتعين الشهادة، يجب إقامتها للّه، وهي وما أحاط بها من ظروف لا بد أن تؤدى على وجهها لتبرأ الذمة ويخلص المرء من التبعية، ومن كانت هذه غايته فهو أبعد ما يكون عن التزيُّد والتشبُّع بما لم يعط، وعلى هذا المنوال قبلت أن أخط هذه الحروف في مذكرات غير شخصية، نبعد عنها كل ما لا يهم القارىء وما يجعل الفضوليين يدسُّون أنفهم في حياة الناس بلا حق، زعماً بأنهم أصحاب أقلام موحية ونظرات فاحصة يزكيها العلم والتحليل النفسي.

إن حقائق التاريخ ليست أوهاماً وأباطيل تفترض وتقدر، ولكنها وقائع تحدث فعلاً فتنقل وتروى بصدق وأمانة، وقد يعتريها تحريف وتزوير ولكن الحقيقة خالدة، والذي يضمن خلودها هو أنه لا يكون هناك مؤرخ واحد، وحتى لو اتفق أن جازت مؤامرة التزييف على المؤرخين كلهم، فإن الحقيقة لا تعدم (ابن خلدون) جديداً يخلصها من الزيف، ويبرزها ناصعة للعيان.



ومن ثم كان المؤرخون على خطر عظيم، حتى قال التاج السبكي في كتابه: «معيد النعم ومبيد النقم» في حقهم: «إنهم على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق».

ونقول هذا؛ لأن للمذكرات صلة بالتاريخ، فقد تفسر ما غمض من أحداثه، وقد تتمم بعض النقص في مروياته، ولا سيما إن كانت بنت وقتها كاليوميات والحوليات التي حرص كاتبها على تسجيلها في حينها، وإن كان ذلك قد يعتمد رواية واحدة من عدة روايات للخبر أو نشره لا تحقيق معها، فليس ضربة لازب، أن تكون مزامنة الحادث دليلاً على صدقه بإطلاق، وعلى ذلك، فإننا نكتب هذه المذكرات وقد مرّ على حوادثها سنوات وسنوات، وبعضها مما علق بالذاكرة قبل أن نعرف الأبجدية، فلا ينتظر منا أن نؤرخها ولا أن نحدد وقوعها باليوم والساعة إلا ما كان منها يحمل تاريخه أو يعين وقته على سبيل التقريب، خاصة وأنا ما انتحلت يوماً صفة مؤرخ ولا كتبت في التاريخ بمعناه المتعارف إلا تلخيصاً أو تأسيساً لعمل فكري وحركة أدبية كما يعلم المتتبع لإنتاجي وكتاباتي.

والخلاصة، أن هذه المذكرات هي تسجيل لأحاديثي وعروضي عن مشاهداتي ومعلوماتي التي أفضي بها لإخواني وأصدقائي في كثير من الاجتماعات واللقاءات عند الخوض في الكلام على الحركة الوطنية ونشأتها ومحاربة الجهل والأمية الفكرية والبدع والضلالات التي كانت منتشرة في



المجتمع المغربي، وإعداد الشعب وتوعيته بما يجعله في مستوى الوثبة الكبرى التي تخلصه من براثن الاستعمار والسيطرة الأجنبية، وهي الأحاديث التي كانت تحمل المستمعين لها على الالتماس مني بإلحاح أن أكتبها وأسجلها لعموم المواطنين.





أصداء فاس

ليس لديّ ما أقوله عن فاس وقد خرجت منها وأنا صبي من ست سنوات، وأقصد ليس لديّ ما أذكره وإن غفلت كثيراً من الأشياء لكنها لا تهم القارىء، وهي على الإطلاق من الأمور الشخصية التي أستبعدها ما أمكن عن هذه المذكرات. نعم هناك بعض الانطباعات التي أحتفظ بها عن مسقط الرأس مما له صفة غير شخصية في الجملة أحب أن ألم بها وإن لم أدرك مغزاها إلا بعد الكبر، على أن منها ما حدّثت به ولم أشهده لاستحالة مشاهدتي له إذ ذاك.

وهذا هو ما حصل عند ولادتي عشية يوم الثلاثين من شعبان[1]، والناس يحتفلون بحلول شهر رمضان الاحتفال العظيم المعهود الذي أدركنا الكثير من مظاهره ومجرياته، فمن إطلاق النار في الهواء ومن النفخ في الأبواق والمزامير وقرع الطبول والدفوف، إلى زغاريد النساء المرتفعة من سطوح المنازل وتجاوبهن بنقر الدفوف، إلى طواف بعض

(١) ولد الأستاذ عبدالله گنون بفاس في ٣٠ شعبان ١٣٢٦هـ، موافق ١٩٠٨م.



أهل الطرق الصوفية في الأزقة بأعلامهم الخاصة رافعين أصواتهم بالذكر والدعاء، وكل ذلك لإعلان الفرح والسرور بإهلال هذا الشهر المبارك واستقباله كما يستقبل العظماء من الناس، وفي بعض المدن الكبرى والعواصم يعتلي دوي المدافع مساهمة من الحكومة في الاحتفاء بهذه المناسبة السعيدة، وقد دام هذا إلى أيام الاستقلال الأولى ثم خفّ وانعدم.

والذي أريد قوله بعد هذه المقدمة الصغيرة، هو أن الكاتب عند استهلاله[1] وهو بكر أمه، وسادس أولاد أبيه الذين توفيت أمهم من قبل، أشعر جده الشيخ التهامي بازدياده في تلك الساعة المشهودة، فقال: هذا الولد جاء (يشعبن). . . وكلمة يشعبن هذه مأخوذة من شعبان فهي مشتقة من الجامد، وهو أمر لا تجيزه القواعد إلا أن الناس حتى العلماء منهم كما رأينا بما بقي عندهم من السليقة العربية، يرتكبونه أحياناً، وقد أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة أخيراً، ولم يقتصروا على هذا الفعل بل قالوا: (شعبانة) وهم يريدون الأيام الأخيرة من شعبان كما قال أبو نواس:

إذا العشرون من شعبان ولَّت
فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار
فقد ضاق الزمان عن الصغار

---

(١) استهلاله، أي: خروجه إلى الدنيا.



وكذلك كانت شعبانة أيام نزهة وأفراح ومآدب وخروج إلى البساتين والضيعات زرافات وأُسراً وجماعات من كل الطبقات كالطلاب والتجار والموظفين والأبناء والبنات والسيدات، كل حسب استعداده وطاقته، وبذلك يظهر أن حفلات شعبان مشتركة بين توديع أيام الإفطار وشهوره واستقبال شهر رمضان وأيام الصيام الواجب، ولا أدري ما أراد الجد رحمه الله بقوله عن حفيده الجديد: إنه جاء «يشعبن» هل المعنى الأول أم الثاني أم هما معاً؟ وعلى كلٍّ فإذا كان النواسي وهو من نعرف قد جعل حداً لفتكه العشر الأواخر من شعبان، وجاء شوقي من بعده فعيّن مبدأ استئناف الحياة الشاعرية بقوله:

رمضان ولّى هاتها يا ساق
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فإنهما معاً كما يدل عليه قولهما، كانا يحترمان شهر رمضان ويصومانه كسائر المؤمنين، فرحمة الله على أولئك القوم كانوا كما قال أحدهم:

ولله مني جانب لا أضيعه
وللهو مني والبطالة جانب

والانطباع الذي يذكره الوليد الصغير ولا ينساه أبداً، هو انطباع تربوي لتعلقه بحياة الكتّاب القرآني، وقد أدخل الوليد الكتّاب مبكراً جداً في سن الخامسة تقريباً، وكان يذهب إليه من خراجة سيدي العواد إلى الباب الصغيرة



للبيت لوقوعها بهذا الحي، ويصعد إليه بدرج لأنه مبني على جنبتي الطريق، وكان المشرف عليه تلمسانياً ابناً للمعلم الذي قرأ عليه الوالد والعم، وهذا كل ما أذكره عن الكتاب الفاسي، حتى أني لا أذكر شيئاً مما قرأته فيه، والذي حدث لي به هو أني التقطت يوماً ما من بين أعشاب الحصير قرشاً فضياً يساوي نصف درهم شرعي، ولما انصرفنا لحالنا أريته لأخي عبدالحفيظ وطلبت منه أن نمر على دكان بقّال شاهدت عنده أقلام رصاص ذات ألوان متعددة زاهية مغرية، لشراء واحد منها، ففعل، واشتريت بالفعل القلم الذي أعجبني، وكانت الفكة التي ردها عليّ من القطع النحاسية السوداء المسماة كل واحدة منها بالموزونة، كثيرة بحيث ملأت كفَّتَي الصغيرتين، وعدنا إلى البيت وأنا جد مسرور ببضاعتي الجميلة، ورأت أمي القلم وأفرغت في يدها الفكة، فقالت: ومن أين لك ما اشتريته به؟ فأخبرتها بالواقع، فأعلمتِ الوالد فأحضرني أنا وأخي وسألني: لمن كان القرش؟ فقلت: لا أدري، فقال: هل أطلعت المعلم عليه؟ فقلت: لا؛ لم أطلعه، فقال: كيف تصرفت فيه وهو ليس لك؟ فقلت: إني وجدته بين ثنايا الحصير، فقال: هل الحصير هو صاحبه؟ فسكت، فوبّخني كثيراً وقال لي: كان عليك أن تسلمه للمعلم وهو يبحث عن صاحبه، وأمر أخي فحملني وشدّ على رجلي ووجه أخمصيهما إلى الوالد الذي جعل يهددني بضربات متقطعة على رجلي، بقلم الرصاص الذي اشتريته وأنا لا أدري أنه سيكون آلة عقاب لا آلة كتاب،



وكنت أرتجف من شدة الخوف وأبكي، والوالدة تقول: كفى، كفى، فهو إنما اشترى قلماً أعجبه ولم يشترِ لعبة ولا حلوى، والوالد يقول: لماذا لم يطلب مني شراءه له؟ وماذا ينفعه القلم المقتنى بمال حرام؟ وأشار إلى الأخ فأرسلني، وقال له: كان عليك أن تنهاه، فقم معه الآن إلى البقّال وأعيدا القلم إليه، وقل له يأخذ فلوسه ويعطيكما القرش لتسلماه إلى المعلم وهو يعاملكما بما يجب، ولكن المعلم لم يقل لنا شيئاً وإنما سأل عمن فقد هذا القرش المشؤوم؟ فقال ولد أكبر منا معنا يسمى الخضر، وكان ضخم الجثة إنه له فأعطاه المعلم إياه، وانتهت المشكلة وكانت هذه (العلقة) هي الوحيدة في حياتي بالبيت والكتّاب القرآني.

ومما أحفظه من أصداء الطفولة بفاس، أني بحثت عن الوالد في البيت فلم أجده، وعلمت أنه في الدار الصغيرة فأردت الذهاب إليه فمنعتني الوالدة، ولكني تسللت خفية فرأيته جالساً على سجادة وبيده سبحة وهو مستقبل يذكر، وقد خيّم السكون على المكان فلا حركة ولا مَن يهمس ببنت شفة، وتوقفت قليلاً ثم هجمت عليه، فردّني بلطف ولكنه لم يكلمني ولا عاملني بالعطف الذي عهدته منه.

وبعد أيام خرج عشية واصطحبني معه وكان أن وقف أمام ضريح سيدي علي بوغالب، ونظر إلى سقايته المحطمة وهو حزين، وكذلك مرّ بمسجد باب الكيسة ورجع بصره في مئذنته المتصدعة وهو يحوقل ويتأسف ولا يخفي



امتعاضه، وإن كنت لا أفهم سر ما يبدو منه من انفعالات ولا حتى غاية هذا الخروج واصطحابه لي فيه، وانعدام كل معالم السرور والابتهاج والملاطفة التي عهدتها منه في خرجاتي بصحبته.

وكان ما كان من مغادرة فاس بقصد الهجرة والاستقرار بطنجة، وقد نسيت كل هذه الانطباعات حتى كبرت ودرست وسمعت منه ومن غيره عن ضرب فاس بالمدفعية الثقيلة من طرف جيش الاحتلال الفرنسي نفسه وأصيب المسجد الأموي هو الآخر بتصدُّع وارتجاج، فعلمت سر تلك الخرجة التاريخية التي رافقت فيها الوالد، وما كان عليه من حزن وتأثر وانفعال وعدم انبساطه معي كما كان يفعل من قبل حين يخرج بي إلى أماكن النزهة والفسحة، وأن ذلك اليوم الذي كان معتكفاً فيه بالدار الصغيرة هو يوم قصف المدفعية الفرنسية لفاس، وأنه في خلوته تلك كان يقرأ اسم اللطيف ويدعو الله عزَّ وجلَّ بهلاك الظالم وكف شوكته عن المسلمين.

ومعلوم ما جرى بعد ذلك اليوم، من احتلال أفراد الجيش للمدينة، وتمركزهم في نقط معينة من أحيائها وطواف من كان يعرف بعمر الريفي على دابته بالطرق الرئيسية وأمره لمن كان معه من الأتباع بإلقاء القبض على من لقيه من الشبان والعمال حتى يستكمل عدد العشرة والخمسة عشر ويساقون إلى مقبرة (القبب) بباب الفتوح حيث يؤمرون بحفر قبورهم ثم يعدمون بالرصاص، ففعل



ذلك أياماً لحد أنه لم يبقَ في الشارع أحد، وانتشر الرعب في المدينة، وخاصة حينما يمر زبانية الريفي بالطرقات عائدين بالنعوش تقطر دماً، زيادة في الإرهاب والقمع، حتى ضجّ الناس وبلغت قلوبهم الحناجر، فقام جماعة من الأعيان ووجوه السكان بمقابلة سلطات الاحتلال والتفاوض معها في سبب هذا الانتقام وجعل حد لهذه التصرفات اللامسؤولة التي يقوم بها الضابط عمر ضداً على المدنيين البرآء، وكان أن أعلنت الهدنة بين السكان والقوات العسكرية بشروط منها أداء غرامة مالية قدرها مائتا ألف ريال (٢٠٠,٠٠٠) حسني، وتسليم جميع أنواع الأسلحة التي بيد الناس حتى الخناجر والسكاكين، ورفع رايات بيض على الجدران وسطوح المنازل، فتكدست الأسلحة في الشوارع ورفعت آلاف الأعلام البيض في فضاء المدينة أياماً عديدة، نتيجة لما أصاب الناس من خوف وذعر وكانت هذه هي مذبحة فاس الحقيقية لا مذبحة الضباط الفرنسيين التي قام بها الجند ثورة على تعسف أولئك الضباط وتحكمهم الذي كان يؤدي إلى إهانة الجنود وتسخيرهم وإذلالهم بما لم يعهدوه من قبل، وقد كان لهم ضباط مواطنون وأجانب غير فرنسيين، ولكن معاملتهم لهم كانت في حدود القانون والأنظمة العسكرية المتعارفة.

ونشير أخيراً إلى أن السلاح الذي تراكم في الطرقات نقل بعد اختباره وأخذ ما كان مهماً منه إلى ما يسمى بدار السلاح في البطحاء، ليبقى شاهداً على الخضوع والاستسلام، وإن هذه المذبحة كانت سبباً في هروب كثير



من أهل فاس ولا سيما الشبان إلى البوادي والمدن النائية، وأعرف منهم بطنجة اثنين من صميم الأُسر الفاسية أحدهما يسمى: العربي الحلو، والثاني: شريف طاهري، وكانا يعملان في الميناء البحري، وحدثاني أنهما فرّا إلى طنجة في تلك الأيام السود، وكان الحلو كلما لقيني يحييني ويترحّم على سيدي التهامي ـ أعني: جدي ـ مما يدل على أنه حين خروجه من فاس كان واعياً بما يجري وأنه كان يحضر دروس الجد رحم الله الجميع.



وداعاً يا فاس

سكر الفرنسيون بخمرة الانتصار وسقوط عاصمة إسلامية كبيرة من طراز فاس في أيديهم، ولعلهم ما كانوا يحلمون بذلك، وحقيق أنه لو كان هناك تدبير محكم ورأي حصيف وسياسة وطنية منبعثة من تضامن القمة والقاعدة والتصميم على المقاومة إلى النهاية لما كان الفرنسيون حصلوا على هذه النتيجة، ولا أبرمت معاهدة الحماية، ولأخذت قضية المغرب اتجاهاً آخر أقل ما يسفر عنه تطبيق مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء الدولي. وهذا ما كان العقلاء من رجالات المغرب يفكرون فيه ويتوقعونه، ومنهم الجد السيد التهامي الذي فكر في الهجرة إلى الشام أو المدينة المنورة منذ نزول الفرنسيين في الدار البيضاء سنة ١٩٠٧، ولكنه كان يأمل أن يجلوا عنها بالمقاومة وإعلان الجهاد، وقد ألّف في الترغيب والحض على الجهاد أربعين حديثاً شريفاً وطبعها، وكان يوزع منها على العموم ورجالات القبائل الثائرة عدة نسخ.

ثم بعد إمضاء عقد الحماية، يئس من تحقيق هذا الأمل وكان قد بلغ من العمر عتياً وضعفت صحته، فقال



لولديه، العم سيدي محمد والوالد: إن الشمس على أطراف النخيل ولم يبقَ لي طمع في الهجرة، فإذا قضيت نحبي فأنتما مأذونان في الهجرة وعدم الإقامة في دار يحكمها كافر، وكان وقع هذا الكلام في نفوسهما مؤلماً جداً، وما لبث أن توفي رحمه الله، ولم يكن بالسهل ولا باليسير على أسرة تتكون من أكثر من عشرين نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً، أن تتحرك للخروج من مسقط رؤوسها وتخلي مساكنها وتفوت أثاثها وفرشها وماعونها كيفما تأتى وفي أقرب وقت، والأهم من ذلك مكتبتها القيِّمة، وفي ظروف إرهابية تخضع كل الخضوع للرقابة الفردية والجماعية، خاصة إذا كانت أسرة علمية لها شعبيتها ومكانتها في المجتمع، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وكانت القطرة التي أفاضت الكأس هي الحادثة التي دلت أعظم الدلالة على فقد الفرنسيين لحس التمييز وطيش عقولهم، وهي ما سمعت الوالد رحمه الله يحكيها أكثر من مرة، ويقول: إن السلطة الفرنسية دعت علماء فاس إلى الاجتماع بالبطحاء في الدار التي جعلوها مقر ممثلية الإقامة العامة، فحضروا جميعاً بمصاحبة الولاة المحليين، قال: «وجلسنا في ممر طويل وفينا من هو بمرتبة أشياخنا، والمساوون لنا ومن دوننا، يعني العلماء من جميع الطبقات، وانتظرنا في هذا الممر طويلاً، وكان بعض الموظفين العسكريين والمدنيين يمشي ويجيء بيننا وهو يدخن ويلقي بأعقاب الدخينة في الأرض، وهو أمر كان في ذلك الوقت يكاد يكون مستحيلاً، إذ لم يكن أحد يجرؤ على التدخين



بحضرة العلماء، بل إن من العلماء من لم يكن قابل ولا رأى أجنبياً غير مسلم من قبل.

وبعد ذلك دعوا إلى قاعة الاجتماع، وعقدت جلسة برئاسة شيخ الجماعة إذ ذاك السيد أحمد بن الخياط، وتولى الكتابة السيد محمد الحجوي الذي صار بعد ذلك وزيراً للعدل وحضر إلى جنبهما فرنسي كان يتكلم العربية بطلاقة، لم يسمه الوالد، وأظن أنه لويس مارتن المستشرق المعروف، وصار يسألهم عن الدراسة في جامعة القرويين كيف تسير، وما هي العلوم التي تدرس فيها، ومن هم المدرسون الملازمون، وما لكل واحد منهم من الحصص في اليوم، وحال الطلبة الوافدين على الجامعة من خارج فاس، والمدارس التي يقيمون فيها، والطلبة المقيمين من أبناء فاس، وعدد الجميع إلى آخره. وهو يكتب ويدوّن، ويستعين ببعض التراجمة الجزائريين، ويظهر من البشاشة والمجاملة ما لم يُغرِ أحداً، وما اعتبره الوالد سمًّا في دسم، وقد مرّ ذلك في أكثر من ثلاث ساعات.

وقال الوالد: وحين خرجنا مررنا، يعني هو وأخوه، بجامع الشربليين فدخلناه وكان الناس قد صلّوا الظهر من مدة، فتوضأنا وصلّينا وتعاهدنا أنا وأخي على الخروج من غير تأخير وكيفما كان الحال، قبل أن يستفحل الأمر ونرى ما لا طاقة لنا به ولا نجد صبراً عليه.

وخرجا فعلاً ومعهما بعض الأصحاب والأخ الأكبر سيدي محمد مورين بالفسحة والزيارة ولقاء بعض طلابهما وتلاميذهما في المنطقة الشمالية، وكان للسفر حينئذ وسيلة



واحدة هي الدواب، فاشتريا ما يلزمهما لذلك، ووكلا بعض الأصهار والأحباب على بيع ما يباع من أمتعة المنزل وبعث ما لا غنى عنه، وأهمه الكتب إلى مدينة طنجة التي هي نهاية الرحلة الداخلية للإبحار منها إلى المشرق بقصد الهجرة، وكان خروجهما في رجب عام **١٣٣٢** وتجولا ما شاءا في مدن الشمال وقبائله واستقرا بطنجة، وكانا قد هيآ تذاكر السفر في باخرة لا أدري جنسيتها ودفعا ثمنها وجعلا يترقبان وصول الأسرة على أحر من الجمر، وتأخر وصولها إلى أن دخل شهر رمضان، ولم تتم تصفية ما كان يجب تصفيته من أمتعة البيت، فبقيت بعض ساعات الحائط في مكانها والأسرة المعروفة بالناموسيات(١) مشدودة في غرف النوم، وأما الكتب فكانت مشكلتها أعظم، إذ السفر إنما كان بواسطة الدواب المكتراة وهي كثيرة لجميع أفراد الأسرة من نسوة وأطفال وبعض الأصحاب، وأذكر منهم واحداً يسمى عبدالسلام البقالي والرجل الوحيد الذي كان معنا من الأسرة هو خالي السيد محمد القادري، وكان لا يزال شاباً ليس له خبرة بشؤون السفر، ولم يغادر فاس قط، وكذلك الأخ سيدي محمد الذي أرجعه الوالد من مدينة طنجة ليصحب القافلة وكان مثل خالي بل أصغر منه، إلا أن خالي كان متزوجاً بأختي حفصة وهو قد خرج معنا لأنه لا يمكن

---

(١) الناموسية: فراش نوم يكون على شكل خاص، أعمدته من حديد، وعلى كل عمود كرة صفار أو نحاس، وتكسوه من أعلاه قطعة ثوب في شكل قبة، يعلو الفراش عن مستوى الأرض بنحو متر ونصف.



أن يفارق أمه كما أن أمي لا تقدر على مفارقتها وهي بدورها لا تقدر أن تفارق ولدها وابنتها وقد قال لها الوالد قبل الخروج: إن ولدك مثل ولدي وهو زوج ابنتي، وأنت حماتي فلا فراق بيني وبينكم جميعاً وهذه السيدة هي جدتي للأم للا كترة المرية بكسر الراء من غير تشديد، وأولاد المري من أشراف فاس القليلي العدد، وكان معنا أخي عبدالحفيظ وهو يافع ابن إحدى عشرة سنة أو يزيد قليلاً، وأختي الشقيقة عائشة من ثلاث سنوات تقريباً، وزوجات عمي وابنة إحداهما وابنها سيدي محمد وابن خالي سيدي محمد وأختي خديجة وهي بنت مراهقة، فكان خالي في خدمة أمه وزوجه وأخته، وأخي في خدمة إخوته وزوجات العم. الخلاصة، أننا كنا قافلة بمعنى الكلمة نسير في خفارة المكارين أصحاب الدواب التي منها البغال وخيول وأحمرة، وكان لنا سرادق كبير، ننصبه ليلاً للنوم وفي بعض ساعات النهار للاستراحة والأكل والصلاة، وكان موكبنا يلفت نظر بعض سكان القرى التي نمر بها، فيأتوننا ببعض المواد الغذائية كالبيض والزبدة واللبن والدواجن من الطير والخبز والفاكهة فنشتري منهم ما نكون في حاجة إليه، وبقينا في هذه الرحلة مدة أسبوع كامل، من فاس إلى مدينة العرائش، حيث نزلنا عند قاضيها السيد أحمد بن يوسف الفاسي، وهو قرين الوالد، فرحّب بنا وأكرمنا، ومن ثم ركبنا باخرة إسبانية نقلتنا إلى طنجة فوصلناها من يومنا.







صورة العلاّمة الشيخ عبدالصمد بن التهامي گنون
عميد الأسرة الكنونية بطنجة



الأستاذ عبدالله كنون في سن السادسة عشرة



العلاَّمة الأديب الشاعر محمد بن عبدالصمد كنون
صورة أُخذت له سنة ١٩٢٧



التقطت الصورة سنة ١٩٢٧، وتضم ـ من اليمين إلى اليسار ـ الشاعر التونسي سعيد أبو بكر ـ الصحفي أبو بكر عبدالوهاب (رئيس تحرير جريدة أظهار التي صدر عددها الأول سنة ١٩٢٥ بطنجة) ـ الأستاذ عبدالله گنون في العقد الثاني من عمره

وإني الآن أتصور السيدات الفضليات اللاتي لم يغادرن قط مدينة فاس، وهن في عنبر الباخرة متوجسات من البحر، ومنهم من أصابها الدوار قبل تحرك الباخرة، فأجركنَّ أيتها المؤمنات المهاجرات على الله، وإثمكن على من أخرجكن من مدينة جدكن كما أخرج أسلافكن منها قبل عميل المروانية وعدو الأشراف موسى بن العافية، فهل كتب على آل البيت التشرُّد في الأرض أم إن مطلقة علي كرّم الله وجهه ما زالت تنتقم من بنيه وإن قدم العهد وبعدت الشقة؟

لم أنسَ الالتزام بإهدار الناحية الشخصية من هذه المذكرات، وإنما أردت بوصف بعض الصعوبات التي لقيها أهلونا في رحلة الهجرة والمشقات التي لحقتهم وهم يغادرون فاساً ويقولون لها: وداعاً يا أرض الآباء والأجداد، فراراً بدينهم من الفتنة وعزوفاً عن الخضوع لحكم الأجنبي المعتدي بالمكر والقوة على الوطن العزيز.

لم أكن أدري مغزى ما يجري، وإن كنت أشعر أن الرحلة لم تكن هينة على الراحلين، وأن الحزن يغلف نفوسهم لما يعانونه من فراق الأقارب والأحباب، وما يجدونه من التعب والإرهاق وللمستقبل المجهول الذي يواجهونه، ولذلك كنت إذا تطلعت في وجوه الجميع سواء منهم الوالدة أو الجدة أو الخال أو غيرهم لا أرى علامة ارتياح، ولا أفتأ أصعد إلى ظهر الباخرة ثم أنزل إلى العنبر متأكداً من وجودهم، ويجذبني منظر البحر فأصعد لأنظر إليه، لكن الوالدة تفتقدني فتبعث إليّ وهكذا دواليك، وكان على سطح الباخرة رجل من المسافرين يحتمل أن يكون من أهل العرائش أو من أهل طنجة لتشابه حلتهم وخصوصاً طربوش الطاسة الأحمر فكان يداعبني كولد صغير بكلام لا أجيبه عنه،



ومما قاله لي: احذر من الدوار عندما تتحرك الباخرة، وعندما تحركت أردت أن أصعد إلى فوق لأرى كيف تسير هذه الباخرة في البحر، وما أن تمكنت من ذلك حتى وجدته قد قاء وأفرغ كل ما في بطنه الواسع بباب العنبر بحيث قطع الطريق بيني وبين المرور إلى السطح، وتعجبت من أمره وهو الذي كان يوصيني بعدم الاقتراب من حاجز الباخرة الذي يطل على الماء ويحذرني من الدوار، وإذا هو مرتمٍ على مقعد في حالة سيئة.

وصلت الباخرة التي أرست في عرض البحر ونقلنا إلى البر زورق خاص، إذ لم يكن هناك ميناء ترسو البواخر بجانبه، وإنما هو رصيف خشبي متين طويل ضارب في البحر بنحو مئتي أو ثلاثمائة متر، فوجدنا في استقبالنا العم والوالد والسيد الحاج عبدالرحمٰن گنون عم الوالد الذي كان موجوداً حينذاك بطنجة، وبعض الأصدقاء والمعارف وأمناء المرسى من أهل طنجة وفاس، فكانت فرحتنا عظيمة وارتمينا على أحضان الأب والعم وتمسكنا بهما لئلا يبعدا عنا، وانتقلنا إلى الدار التي أعدت لنزولنا وبعد الاستراحة ومرور بضعة أيام والتساؤل عن وقت المغادرة ورحلة الهجرة علم الجميع من الوالد وأخيه أن هذه الرحلة تعطلت إلى حين بعيد بسبب نشوب الحرب العالمية العظمى وأن أوراق السفر قد أعيدت إلى الشركة التي كنا سنسافر معها، وقد غادرت قبل وصولنا إلى طنجة بما يقرب من شهر، وأنها قد أصيبت وكان من ركابها بعض التجار من أسرة ابن جلون كانوا يريدون الحج ويرغبون أن يتم حجهم بصحبة العلماء، وكان من ركابها أيضاً إدريس الصقلي المعروف بالكنك بكافين معقودين، ولولا لطف الله المتمثل في تأخر وصولنا إلى طنجة لكان مصير العائلة كلها في خبر كان.

لم تخرج باخرة أخرى بعد ذلك إلى المشرق وتمّ قرارنا بطنجة، وكان من قدر الله أن توفي العم رحمه الله بعد عام واحد في رمضان التالي للذي قدمنا فيه، وثقل الحمل على الوالد، ولم يفكر قط في العودة إلى فاس، وسكنا بالكراء وفقدنا الكثير من وسائل الراحة وقلّ الأعوان والآخذون باليد، وانقطعت الصلة أو كادت بالأقارب والمعارف، وأصبح مستقبل الذرية والمحارم محفوفاً بالغموض، ولكن الوالد مع كل ذلك كان مرتاحاً لمهاجره وللوضعية التي كانت عليها طنجة من الاستقلال وعدم شمول الحماية لها لا الفرنسية ولا الإسبانية لما كان يدبر لها من قيام نظام حماية دولي بها، وقد تأخرت إقامة هذا النظام لما يزيد عن العشر سنوات، فكان يقول: لقد صدقنا الله هجرتنا، فليس في البلد إلا نائب الملك وعامله وقاضيه ومحتسبه وناظر على الأوقاف، حتى لما قام النظام لم يكن لأي من دول الحماية نفوذ فعلي على المواطنين، وقد تأقلم الوالد مع البيئة الجديدة، واستحدث صلات طيبة مع أعيان طنجة، فضلاً عما كان يحظى به من احترام الولاة ومحبة عموم الناس، ولم يكن يعترض على عمله العلمي وتدريسه لمختلف العلوم معترض في عموم المساجد، ولا يتدخل في شؤونه متدخل، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن هجرته التي لم تتم بسبب الموانع السياسية وانعدام الوسائل المادية إليها هي هجرة قائمة وثابتة، فهو إذا مرّ في درسه الحديثي بما وقع لبعض الصحابة في حجة الوداع من مرض بمكة وخوف من الموت قبل العودة إلى المدينة، وقوله ﷺ: «**اللَّهمَّ أمضِ**



لأصحابي هجرتهم» يستحضر حالته هو ويتأثر عظيم التأثر ويقول مقتدياً بالرسول عليه السلام: «**اللَّهمَّ أمضِ لي هجرتي**» حتى أنه لما اضطر ذات مرة للاستشفاء بحمة مولاي يعقوب ذهب إلى مكناس ولما لم يجد سيارة من مكناس إلى الحمة ذهب إلى فاس واستراح في مسجد أبي الجلود خارج فاس ريثما هيأ له أصحابه السيارة وخرج إليها ولم يدخل إلى فاس، وكنت بصحبته، فلما قضى حاجته رجع من غير أن يحدث نفسه بدخول فاس، بل إنه ركب عربة وذهب بها إلى مقبرة القباب خارج باب الفتوح وأنا معه لزيارة قبر والده، وكان ذهابه إليها من وراء أسوار المدينة، وهو على اعتقاد راسخ بأنه ما يزال في الهجرة.

ولما ركب القطار للرجوع إلى طنجة استأذنته في البقاء بفاس لبضعة أيام فأذن لي وذهب معه بعض الأصحاب، ودخلت لفاس صحبة السيد أحمد المهندس المعروف بالفاسي، الذي جاء معنا من طنجة، وكان خبر مروره بفاس وعدم دخوله إليها قد شاع بين الناس، وقد كنت جالساً مع ابن عمه السيد أحمد بن الحاج محمد گنون في سماط العدول بباب القرويين فجاء أحد الفقهاء وسلّم فرحّب به السيد أحمد وقال له: هذا هو ابنه، فقال لي ذلك الفقيه: أحقاً جاء الوالد إلى فاس عابراً ولم يدخلها؟ فقلت له: نعم وأنا جئت معه، فسألني عن السبب فبيّنت له الغرض من مجيئه وما حمله على عدم دخوله، فقال: إن للّه رجالاً، وسألت السيد أحمد عنه، فقال: إنه السيد الغالي بن عمرو.





طنجة: النشأة والمقام

قضى الله ولا مرد لقضائه أن تتعذر حركة الهجرة، فاعتمد الوالد الحكمة التي تقول: إذا لم يكن ما تريد فأرِد ما يكون، أما العم رحمه الله فبعد عام واحد من الخروج من فاس، وافاه الأجل المحتوم، فكان ممن تشمله الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. وأما الوالد فقد عزم على المقام بطنجة وعدم الرجوع إلى فاس، مصمماً على نية الهجرة متى تأتَّت، وهكذا قرر الانصراف إلى استئناف أعماله التي كان يقوم بها في فاس، من تدريس للعلم ومهمة التوجيه الديني بالخطابة الجمعية، وتعاطي الإفتاء في النوازل الفقهية، وما إلى ذلك، وإن كان هو والعم لم يفترا عن ذلك حتى في العام الأول لحلولهما بطنجة، فالعم انقطع للتدريس بمسجد القصبة طوال اليوم وتولى الخطبة بالزاوية الناصرية، وكان سكان قرية مرشان يأتون إليه يوم الخميس من كل أسبوع بدابة ينتقل بها إليهم، فيظل يومه ضيفاً عليهم يلقي دروساً علمية على طلبتها وبالمساء يلقي درساً وعظياً لعموم سكانها، وذلك بمسجدها القروي الصغير الذي كان



بها قبل أن يبني الوزراء ورجال الحكومة العزيزية[1] الذين لجأوا إلى طنجة المسجد الكبير بمرشان مجاوراً لمسجد القرية الصغير، ولما توفي كما قلت بعد عام في رمضان التالي لرمضان الذي وصلنا فيه إلى طنجة، جاؤوا للوالد وطلبوا منه أن يدفنوه عندهم في مسجدهم فوافق الوالد، وكان أول من دفن في ذلك المسجد الذي امتلأ الآن بالقبور، وممن دفن فيه بعد ذلك، الشيخ عبدالله السنوسي السلفي المعروف، ومنهم ناظر الأوقاف السيد محمد (فتحا) الركينة، ودفن بساحته بعد امتلائه القاضي محمد بن رحمون والقاضي عبدالعزيز الغساسي والواعظ محمد بن إدريس بناني رحمهم الله جميعاً.

وأما الوالد فكانت دروسه اليومية في الفقه والعربية وغيرهما من العلوم بالمسجد الأعظم، والدينية بالزاوية التيجانية ليلاً بين العشاءين، وتولى الخطابة بالجامع الجديد، كما كان يلقي فيه أحياناً بعض الدروس العلمية وخاصة في الفنون الآلية كالمنطق والبلاغة مما يختار له الطلبة يومَيْ الأربعاء والخميس وأيام العطل، وكذلك كان يخص المسجد الأعظم بدروس الحديث في رجب وشعبان ورمضان قبل أذان العصر، وكان السلطان الأسبق مولاي عبدالعزيز يحضر في بعض هذه الدروس.

نعم، انصرف الوالد بعد وفاة أخيه إلى استئناف عمله

---

(١) العزيزية: نسبة إلى السلطان مولاي عبدالعزيز الذي استوطن طنجة بعد تنازله عن العرش لأخيه مولاي عبدالحفيظ، وبقي مستقراً بها إلى حين وفاته سنة ١٩٤٣، فنقل جثمانه لفاس ودفن بها.



العلمي الذي كان يقوم به في فاس، وهو قد كان مشتهراً بنشاطه ومواظبته في القرويين وغيرها، وقد واصل هذا النشاط في طنجة بعزيمة لا تكل، بعد أن تبين أن انتظار نهاية الحرب قد يطول جداً، وتولى الاهتمام بأسرة أخيه، وتدبر أمر الاستقرار والسكن الذي تغير في عام واحد ثلاث مرات أو أكثر بسبب أن الدور التي كان يستقر فيها لا تتوفر على وسائل الراحة، إما لضيقها وإما لبُعدها، علماً بأنه يؤوي معه صهره القادري وأحياناً صهره الطالبي كذلك، وأهم مشكلة كانت تواجه الأسرة هي الماء، فمن المعلوم أن طنجة آنذاك لم تكن بيوتها تتوفر على الماء الصالح للشرب أو التنظيف، وهو إنما يقتنى من القرابة الذين يطوفون بقرابهم في الأحياء، أو أصحاب البراميل الذين يبيعون ماء الشرب الذي يستقى من بئر واحدة بالمدينة في شاطىء البحر يسمى بئر الفرنسيس... وإذا قارنا هذه الحالة بما كانت عليه الأسرة بفاس، والماء يتدفق بين أيديها من صهريجين اثنين أحدهما بالدار الكبيرة والآخر بالدار الصغيرة، زيادة على نافورة بوسط الدار الكبير ينهمر ماؤها ليل نهار، أقول: إذا قارنا بين الحالين علمنا ما كانت الأسرة تعانيه في حياتها اليومية من متاعب وصعاب.

وقد فرجت هذه الأزمة في العام الثاني لقدومنا إلى طنجة على يد الأمين القباج الذي قال للوالد: إني سأنتقل إلى مراكش، والدار التي أسكنها هي الدار الوحيدة في طنجة التي تصلح لك، وفعلاً كانت هذه الدار فسيحة الأرجاء كثيرة الحجر والغرف ما بين فوقي وسفلي ذات مطبخ بمثابة دويرية صغيرة بها مقعد للخدم وصحن وحلقة، أي: منور



للهواء والشمس، وحمام بلدي، وامتيازها الأكبر هو اشتمالها على بئر غزيرة الماء لا تغيض ولا تغور، عليها آلة متح (مضخة)، تجعل استخراج مائها يتم بسهولة، وهي واقعة وسط المدينة في الحي المسمى بوادي أحرضان، بينها وبين كل من المسجد الأعظم والجامع الجديد والزاوية التيجانية نحو مائتي متر أو ثلاثة، وهذه الدار هي المعروفة بدار الطريس، يعني النائب السلطاني المعروف، وكانت إذ ذاك مُلكاً للوزير الجباص، وكان كراؤها عشرين ريالاً حسنية، وهو كراء قياسي في ذلك الوقت، فانتقلنا إليها ووجدنا فيها أعظم الراحة، وانتظمت بذلك حياتنا وتمّ استقرارنا، وكأني بالوالد العزيز يتلو عندئذ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ وسيدات البيت يقلن متمتمات: «الحمد لله الذي أبدل درهمنا بدينار».

كان من نتائج هذا الاستقرار مضاعفة جهود الوالد في انتقاله بين أماكن وجوده من المسجد والزاوية لقرب المسافة حتى أنه كان يخرج لصلاة الصبح في الزاوية[١] إلى أن كثرت المشاغبات بين الأجانب في أثناء تأسيس النظام الدولي والحرص على تعميم المشاركة فيه من دول لم تكن مشاركتها فيه واردة، فكان بعض رعاياها المتسكعين ليلاً في المقاهي والمقاصف يشتبكون بالسلاح في مطاردة بعضهم لبعض، وخاصة في السوق الداخلي الذي كان هو وسط المدينة، وحي وادي أحرضان الذي هو محل سكنانا يقع

---

(١) في الزاوية، يعني: الزاوية التيجانية، لأن الشيخ عبدالصمد كان تيجانياً.



بمقربة منه وكأنه مكمل له، فحدث ذات ليلة أن أطلق أحد الإيطاليين النار على خصم فرنسي له، في حين مرور الوالد بينهما وصارت فتنة اختلط فيها الحابل بالنابل فرجع الوالد إلى البيت، وانقطع عن الخروج ليلاً من ذلك اليوم.

وبالنسبة إلينا أنا والأخ عبدالحفيظ استقر أمرنا على القراءة في كتاب قريب من البيت ومعلم حضري من أهالي طنجة هو الحاج محمد بن العربي أشرقي المعروف بابن فضيلة، وقبله كنا قد التحقنا بكتابين مختلفين نظراً لاختلاف الأحياء السكنية التي تنقلنا بينها، وهي ثلاثة بقينا في واحد منها برغم اختلاف السكنى، ولما ابتعدت سكنانا عنه التحقنا بالثاني، وكانا معاً لمعلمين بدويين قلّ أن انتفعنا بشيء منهما، فأنا لا أذكر شيئاً مما قرأته عليهما ولا ما ابتدأت به ولا ما انتهيت إليه، تماماً ككتاب فاس الذي لم يسبق في ذهني عنه إلا حادث القرش الذي حكيته قبل، نعم أذكر أننا لما ابتعدنا عن الكتاب الأول، لم نكن نخرج وقت الفطور كما يخرج الأطفال الآخرون لبُعد السكن، فكنا نحضر معنا طعام الفطور، ويهيئ لنا المعلم الشاي الذي نتناوله مع الطعام، ولا شك أن ذلك كان بتوصية من الوالد، فكان هذا المعلم بالنسبة إلينا معلماً وقهوجياً، وأما الكتاب الثاني فأذكر أن معلمه كان ينام مولياً وجهه شطر الجدار، وحين يحس بفتور القراءة وخفوت صوت الأطفال يجلس ويقول مهدداً لنا: «طاب طريق تعرطوا»، وهذه الطريقة معروفة في اللهجة الجبلية، معناها أنكم ستعرضون ألواحكم عليّ قريباً، ثم يعود إلى إدارة وجهه للحائط وينام. لكن الكتّاب الجديد



كان أولاً في زاوية متسعة في الجملة نصعد إليه ببعض الدرج، وبها بعض النوافذ ورف لوضع النعال وهو في صرة البلد في حي وادي أحرضان الذي ذكرته آنفاً، ثم انتقلنا بعده إلى كتَّاب قريب من الجامع الجديد، وهو ذو طبقتين: عليا لها نافذة على طريق الجامع المذكور، وأخرى على الطريق المقابل له، وكان قبل كتاباً للفقيه المدور من عائلة المدور الأندلسية، وكان رجلاً فاضلاً تخرّج به جلّ طلبة طنجة، ويستقر في الطبقة العليا المعلم والتلاميذ جميعاً ما عدا الطلبة الذين حفظوا القرآن فإنهم يستقرون في الطبقة السفلى، وهي كذلك لها نافذتان على الشارع وبها حوض لمحو الألواح، وبالجملة فهو كتاب مثالي بني لغرض التكتيب ولم يكن ينقصه إلا مستراح، والمعلم رجل حضري نقي الثياب ظاهر الشباب، في نحو الثلاثين من عمره، وهو بارع في مهنته، ومتمكن من زمام تسيير أمور التلاميذ الذين كانوا يختلفون سنًّا، ما بين أطفال في طور التهجي، وأولاد يشرف على تكتيبهم بنفسه إملاءً للحصة القرآنية التي تخص كل واحد منهم مع ما تقتضيه كتابتها من تشديد حرف، وكيفية ضبط كل كلمة، وربط تاء أو إطلاقها، وألف أو ياء ألف في آخر الكلمة، وألف قطع أو وصل، وصلة تتبع ما قبلها ونقطة على ألف من حيث يقرأ، وغير ذلك، وبعض أولاد كبار جاوزوا مرحلة التكتيب وإنما يتلقون الآية من فمه لكتابتها مع التحذير من الخطأ المتوقع في الرسم، كانت الهيبة مسيطرة على الكتاب، ولكن مع ذلك هناك تخفيفات غريبة لم تكن في أي كتاب آخر من أمهات الكتاتيب



المعروفة في المدينة، كان التعليم فيه يبتدىء بعد طلوع الشمس وينتهي قبل الغروب، وبطبيعة الحال يتخلل هذه المداومة حصة للفطور ننصرف فيها إلى بيوتنا بعد محو الألواح وكتابتها من جديد، وحصة طويلة تمتد من بعد الفطور إلى الزوال، ثم ما بعد الظهر إلى ما قبل الغروب، في حين أن الكتاتيب الأخرى يبتدئ الحضور فيها أو في أكثرها بعيد الصبح بقليل، ويستمر بعد الغروب إلى قريب من أذان العشاء فهم يحتاجون إلى الإنارة، وكانت عندنا استراحة أخرى للكبار وهي الخروج لصلاة العصر في وقتها، وكنا مقسمين إلى عدة مساجد، فطائفة إلى المسجد الأعظم وأخرى إلى مسجد الجامع الجديد، وآخرون إلى بعض الزوايا، وذلك لئلا نذهب في مظاهرة، أو لعل الأمر لاتقاء العين على نحو ما قال يعقوب عليه السلام لولده: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾[1]. أما سائر العطل فهي من صبيحة يوم الخميس إلى ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع، وأيام المواسم كعاشوراء والمعراج وما يسمى بالنسخة وهو يوم النصف من شعبان، والعواشر وهي عشرة أيام في كل عيد كالفطر والأضحى والمولد ولم يكن بيننا وبين الكتاتيب الأخرى فرق في هذه العطل.

وأكثر من ذلك إن القراءة كانت عرضاً ومحواً وكتابة، عرضاً في الصباح لما كتب بالأمس، ومحو اللوح، ثم كتابة حصة أخرى، ولا استظهار بعد ذلك ولا (أسوار)[2] إلا لمن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٢) الأسوار: بمعنى القدر المحفوظ من القرآن كأنه جمع سورة.



أتمّ الختمة كلها إلى سورة البقرة. ومعلوم أن التعليم كان في كل الكتاتيب يبدأ من السور الصغار ويستمر بما يشبه العد العكسي من الأحزاب والأجزاء السفلى إلى الأعلى... فإذا بلغ المتعلم سورة البقرة وأقيمت له الحفلة الاعتيادية، بدأ القراءة منها إلى ما يليها على ترتيب المصحف، وفي هذه الحالة يصير مطالباً بالاستظهار، وبعبارة الكتاب بحفظ (الأسوار) إلى الأحزاب الخمسة الأولى، فإذا جاوزها ألغي الحفظ بالنسبة إليها وبدىء من الخمسة الثانية فقط وتنوسيت الخمسة الأولى، ثم إذا بلغ الخمسة الثالثة ألغيت الثانية ولم يعد المتعلم مطالباً إلا بحفظ الثالثة، وهكذا العمل في باقي القرآن لا يطالبه المعلم بحفظ ما عدا آخر خمسة يقرأها، حتى إذا أنهى الختمة كلها وبدأ الختمة الثالثة حينئذ لزمه بالحفظ المتواصل من البداية إلى النهاية.

وكنا نجتمع في صلاة المغرب بالمسجد الأعظم ونلتقي بغيرنا من متعلمي الكتاتيب الأخرى فنجدهم يستظهرون من القرآن ما لا نستظهره نحن، بعضهم يتابع قراءة الحزب اليومي في المسجد ونحن لا نقدر، فنشعر بغيرة منهم، وبعد مرور الزمن، وترك معلمنا لمهنة التكتيب وانتقاله إلى مدينة سلا كاتباً للمستعرب المشهور ميشو بلير، كان يأتي في رخصته السنوية إلى طنجة وكنت أستضيفه وأعتني بإكرامه فسألته ذات يوم عن هذه الطريقة التي كان يتبعها في التعليم مخالفاً بها غيره من المعلمين، فقال لي: هذه طريقة أستاذي السيد العابد، كان يقول لي: لا تبغض أبناء المسلمين في القرآن ولا تكره لهم الكتاب، علمهم



الكتابة والقراءة وما تيسَّر من حفظ كلام الله، فمن كانت فيه قابلية وداوم على الحضور والقراءة فسيحفظ ويتعلم، ومن كان بخلاف ذلك فلا يخرج من الكتاب خاوي الوفاض بادي الأنفاض ثم يقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

وكان أستاذه هذا المسمى بالعابد يحضر إليه في بعض الأحيان، وبحسب ما أذكره كان رجلاً طويلاً شديد البياض منوّر الشيبة عليه سكينة ووقار، فيُجلسه بجنبه ويتحدث إليه قليلاً، ثم يأخذ مما يكون توفر لديه من النقود في ذلك اليوم قدراً ويسلمه إليه فينصرف وهو يدعو له ولنا معشر المتعلمين.

وللعلم كانت العادة أن يقدم المتعلمون إلى (الفقيه) وهو لقب المعلم في ذلك الوقت، كأجرة كل يوم أربعاء قدراً من النقود، يتراوح من قرش إلى نصف درهم، ودرهم وربع ريال إلى درهمين ونصف، وعند بلوغ سورة من السور المشهورة كسورة الأعلى أو سورة النبأ أو الرحمٰن أو يٓس وما شابهها مبلغاً قد يكون ريالاً كاملاً أو بضع ريالات على قدر أسرة المتعلم المادية ومثل ذلك في مطلع كل شهر، على أن هناك متعلمين يتامى وفقراء كان المعلم لا يقبل أن يتكلفوا بشيء.

وعلى ذكر خروجنا لصلاة العصر أذكر حادثة غريبة وقعت لي في هذا المقام، وهي أني كنت من فوج المصلين في المسجد الأعظم، ففي بعض الأيام توجهنا للصلاة وبعد رجوعنا لاحظ الرفقاء شخصاً يتبعنا، فصاروا يتهامسون بما يكون منه، وما إن دخلنا إلى الكتاب حتى مثل أمام الفقيه،



وسلّم عليه، وقال له: يا فقيه هؤلاء الأولاد أتبعثهم إلى الصلاة في المسجد أم للعب؟ فقال له: كيف؟ قال: إنهم لا يصلُّون وإنما يلعبون ويشوشون على المصلين، قال الفقيه: أنت رأيتهم؟ قال: نعم، فنادى الفقيه محاضرة[1] الجامع الكبير، فاصطففنا أمام الفقيه، فقال الشخص المذكور: نعم هم هؤلاء، فأمر الفقيه أحد كبار الطلبة بحملهم واحداً واحداً وتهييئهم للعلقة، وأخذ كل نصيبه من العصا على باطن رجليه، وأخرني عمداً وأنا في حالة من الذعر الله أعلم بها، وما أن اقترب مني المكلف بحملي حتى قام أحد الرفاق وكان يلقب بولد عمتي واسمه عبدالقادر شابو، وكانت أمه عمة أولاد الخروبي، وهم عدة وكانوا كلهم من متعلمي كتَّابنا، فمن كثرة ما ينادون هذا الولد بولد عمتي غلب عليه هذا اللقب، فقام وقال: نعم سيدي، الحق إن فلاناً يعنيني، كان يصلي ولم يكن معنا، ففرج عني وسر الفقيه وقال لذلك الشخص: ها أنا كنت سأضرب ولد الناس من غير حق، فقال الشخص: نعم إن هذا لم يكن معهم، والشخص المذكور كان شريفاً يقال له: سيدي عبدالسلام، وكان بديناً وطويلاً وغليظ الصوت، ولم أره بعد ذلك سنين طويلة، حتى رأيته في تطوان في عداد الأعوان بمشور الخليفة، أما السيد عبدالقادر شابو فما زال حياً يرزق، وهو يحترف بيع الجير، وكلما رآني يسلّم عليّ ويقول لي: قد أنجيتك من علقة فأعترف له وأشكره.

(١) محاضرة: جمع محضري، وهو بمعنى التلميذ، منسوب إلى المحضر بمعنى الكتَّاب كما يسمى عند بعضهم.



وحادثة أخرى شبيهة بهذه، كان معلمنا على تساهله ورفقه يجري علينا امتحاناً في بعض الأيام، خاصة يوم السبت أو يوم الثلاثاء، فيطالبنا بعرض محفوظ اليوم عشية، والعادة أن العرض يكون صباح الغد، وذلك لحملنا على الاجتهاد أو لرؤية بعض التهاون منا في الحفظ، فيوقف أحد كبار التلاميذ بجنبه وينادي على الأولاد، بدأ بصفوف الصغار المجتهدين، ليعرضوا الآية أو الآيتين من حفظهم، فإذا تلعثم أحدهم وظهر عليه عدم الحفظ حمله القائم بجنبه وضربه المعلم شوطين أو ثلاثة على أخمصه، ثم ينتقل إلى الصفوف التي تلي هؤلاء، وهم صف (الخروبة) فيفعل معهم ما فعل مع سابقيهم، وكنت في ذلك الوقت مع هؤلاء لصغر سني، ولكن حصتي كانت ثمن الحزب، أي: ضعف الخروبة، فكان أن عوقب كل من في هذه الصفوف لعدم حفظهم وتخطاني الفقيه عمداً وانتقل إلى الصفوف التي وراءنا، فانطلقت عاصفة من الاحتجاج بوضع السبابة على الفم صوب الأنف تنادي بصوت واحد، أس، أس، أس، فقال الفقيه: ماذا؟ قالوا: إنك لم تنادِ فلاناً، فأجابهم وهو بحالة غضب: هل أنا أعمى؟ هل أنتم مثله؟ هو منذ دخلتم وهو منكب على لوحه، وأنتم تكادون تزلقونني بأبصاركم، إذا نفحت، (أي: أخذت النشوق)، أو شربت، أو عطست، اسكتوا وإلا ضربتكم مرة أخرى.. أدرك رحمه الله أني لم أكن حفظت لوحي في ذلك الوقت، وكنت لا أكاد أرفع بصري عن اللوح، وأنا بحالة اضطراب واختناق فأعفاني من العرض، وذلك من زكانته وفراسته ومعرفته بأصول التربية



وطرق التعليم غريزة لا دراسة... وقد بقي من رفاق هذا الطور بقيد الحياة بعض أفراد وأكثرهم صاروا إلى رحمة الله.

وكان معلمنا في رمضان يسهر الليل كله إلى الفجر ولا ينام إلا بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب كما هي عادة الكثير من أهل طنجة، فلا يتأتى له الحضور إلى الكتّاب في الصباح كالعادة، وفي كل سنة يكلف الطالب الذي جمع القرآن بحيث يمكنه أن يستعرض التلاميذ الصغار والذين يلونهم فيأذن لهم بمحو ألواحهم وتكتيبهم من جديد، فيقوم مقامه، إلى أن يحضر قبيل الزوال بقليل، وفي إحدى السنوات كنت أنا هو ذلك الطالب على صغر سني بحيث كنت لا أصوم، وفي طنجة يصوم الكبير والصغير، وهي عادة حسنة ومزية ينفردون بها، فواجهتني مشكلة، كيف أكون معلم الكتاب وأنا غير صائم، وعوّلت على الصوم فمنعتني والدتي وأردت الاستعانة عليها بالوالد فلم يأذن لي في السحور إذا كنت سأصوم، وقال لي: حيث تبلغ حد الصيام أنا آمرك، وأكثرت الوالدة من وصفي بالضعف والهزال وإني قليل الأكل وما يلحقه الصوم بي من ضرر، واستعان الوالد عليّ مثلها بالمعلم وكان يطيع الوالد طاعة متبصرة ولا أقول عمياء، يمنعني كل المنع بسلطة الفقيه، فسلّمت أمري إلى الله، وكانوا يعطوني طعام الفطور لأخذه معي إلى الكتاب، إذ لا استراحة في رمضان للفطور، فكنت آخذ معي الطعام وأضعه على الرف الذي في مقعد المعلم فيراه الأولاد، ويظنون أني صائم ولكن الفقيه حين يحضر ويراه يلزمني بالأكل فلا يكون عليّ لوم، وحدث في بعض الأيام أن ولداً من لداتي، وكان من أولئك الذين احتجوا



على عدم مناداتي للعرض الذي ذكرته فيما سبق، لم يكن حافظاً فأخرته إلى أن يجيد الحفظ ولم آذن له بمحو اللوح، فقام أحد المتعلمين الكبار في السن ولم يكن طالباً وكان من أسرة ثرية، فقال لي: هل هؤلاء الذين محوا ألواحهم كلهم كانوا حافظين؟ قلت: نعم، فقال: إن هذا أيضاً حافظ، وقال له: قم فامحُ لوحك، ففعل، وبعد أن هيأ لوحه للكتابة جاء يستمليني، فقلت له: إذهب إلى الذين أذن لك بالمحو فاستمليه، فسقط في يده وخاف إن جاء الفقيه أن يجده غير كاتب فيعاقبه، وقام الذي أذن له فطلب مني أن أملي عليه ليكتب، فامتنعت فقال: لم نكن ندري أن يكتبنا في هذا العام إسباني، يعني نصراني غير صائم، فما كان مني إلا أن قمت وأخذت نعلي وذهبت إلى دار الفقيه وطرقت عليه الباب، فخرج وعليه أثر النوم، فقال لي: ما أتى بك، فقلت له: إن فلاناً قد أحدث فوضى في الكتّاب وجرحني بكلام ناب، ورجعت إلى الكتاب وتابعت مهمتي في تكتيب التلاميذ، وأنا في هدوء تام، وحضر الفقيه حالاً وسأل عما جرى فأخبره التلاميذ كلهم بالأمر، فأمر بذلك المتأمر فطرح أرضاً وضربه علقة من أشد ما يكون، وحمدت الله على ما رزقني من التبصر والثبات بحيث لما أخبرت الوالد بما جرى سُرَّ بموقفي الذي كان في الحقيقة أكبر من واقع الحال، وهذان الزميلان ما يزالان بقيد الحياة وهما من أعز الأصدقاء.

والفقيه أشرقي إلى جانب ثقافته القرآنية، كان له إلمام بالعربية والمسائل الفقهية، فإني بعدما حفظت القرآن وصرت أكتب لوحي من حفظي في الختمة الثالثة، كان لا يحتاج



لمراجعته أو على الأصح لا يفرغ لذلك إلا بعد الظهر، فيذاكرني ببعض مسائل الرسم والضبط والتجويد، ويكتب لي بعض النصوص المتعلقة بالموضوع، وكان اللوح يحتوي نصف حزب، ربعاً في كل وجه منه، ثم لما صرت أحفظ المتون العلمية يشقق لي ألفاظ الآجرومية وأبيات ابن عاشر ويبين لي ما تتضمنه من أحكام، وفي كتاب الحج توسع معي كثيراً بحكم أنه سبق له أن حج، فوضح لي كثيراً من أحكام الفريضة الخامسة، وبيّن لي بتفصيل كيف كان حجه، وتطول جلسة مراجعته للوحي حتى يزاحمها أذان العصر أحياناً، ويكون التلاميذ مسرورين بذلك لغفلته عنهم في الجملة.

ومما أذكره في هذا الصدد أنني كنت أقرأ الحزب بالجامع الكبير بعد صلاة المغرب على المعتاد، وكان الوالد يأمرني بذلك لتصحيح الحفظ وإتقان التلاوة، فجلس بجنبي في أحد الأيام رجل ذو هيئة محترمة كبير السن له لحية كثيفة مخضوبة، وعيناه مكحولتان، ولما انتهينا من الحزب التفت إليّ وقال لي: طالب أنت؟ فقلت: نعم، فقال لي: اقرأ الفاتحة، فتعجبت منه، أحفظ القرآن ويسألني عن الفاتحة، ولكني قرأتها له في نفس، فقال لي: الرحمٰن ثابت أو محذوف؟ فأجبته: محذوف، فقال لي: والدليل؟ فقلت له: محذوف والسلام، فلها عني، ولم أراجعه لأنه عظيم في عيني إذ كان كالجبل وأنا بجنبه كالكدية الصغيرة، ورجعت إلى البيت فأخبرت الوالد بأمره، فقال لي: نعم لا بد من الدليل إما بنص خاص أو عام من متون القراءات،



وأمر الفقيه بأن يكتب لي الخراز، أي: النظم المعروف المنسوب لهذا الإمام والذي يحمل اسمه، ففعل الفقيه، وكان أول أبواب هذا النظم نصاً في المسألة، وصار يكتب لي كل يوم حصة منه ويشققها لي، وبعد ذلك صرت أترصد ذلك الشخص فلم يكن يحضر وأنا أتلهف لرؤيته حتى مرت مدة كدت أيأس من لقائه بعدها، ثم جاء فتدافعت إليه، وقلت له: سألتني عن الدليل على الحذف في الرحمٰن فها هو، وأنشدته قول الخراز:

وللجميع الحذف في الرحمان

حيث أتى في جملة القرآن

فقال لي: ابن مَن أنت؟ فقلت له: ابن فلان، فقال لي: سلّم على والدك، ودعا لي، فقلت له: وأنت مَن؟ قال: المأمون بن عجيبة، فأخبرت الوالد فقال لي: هذا حفيد الشيخ أحمد بن عجيبة.

وقد أطلت الكلام عن معلمي أشرقي قصداً لأني رأيت الكثير ممن يتكلمون عن معلميهم يصفونهم بأوصاف غير محمودة كالقسوة وغلظ الطبع وسوء المعاملة للتلاميذ، فأردت أن أعطي هذا النموذج الذي يختلف عنهم تماماً ويرتفع إلى مقام المربي الفاضل الذي لم تكن هذه المهمة الشريفة تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها. وللأسف فإنه تخلى عن مهنته الشريفة بعد قليل من تخرجي، وكنت أنا من الفوج ما قبل الأخير الذي تخرج به، حين قلّ الإقبال على الكتاتيب القرآنية وضايقتها المدارس النظامية، فتوسط له



الوالد مع قاضي المدينة في ذلك الوقت وهو الفقيه السيد علال الهرابي فعيّنه عدلاً، وكان القضاة حين ذاك هم الذين يسمون العدول، ثم إن صهرته السيدة عائشة بنت سيدي خليل اليعقوبي، وهي امرأة كانت ذات شعبية في المجتمع النسوي الطنجي، لما كانت تمارسه من قبالة وعلاج بعض الأمراض، وهي أم زوجة معلمنا، وأخيها السيد أحمد الذي كان من رجال البحرية وهو والد الشاب الفنان العربي اليعقوبي؛ توسطت له عند امرأة المستعرب ميشو بيلير، وكانت مسلمة من القصر الكبير تزوجها حين كان قنصلاً لفرنسا هناك، وكان الناس يعتقدون أنه مسلم لأنه يتزيّا بزي المسلمين. وقد رأيته أنا في مكتبته بعمامة على رأسه وجلابة وسلهام. فألحقه بمكتبته كمحافظ لها وكاتب له، وهو يومئذ مقيم بطنجة، فاتسعت حاله نسبياً، ولما انتقل إلى سلا انتقل معه، وأقام بها بقية عمره وازداد عنده أولاد، منهم الأستاذ عبدالصمد سماه على اسم الوالد، ومن الجدير بالذكر أنه كان ملازماً لدرس الوالد الليلي في الحديث والفقه والسيرة النبوية، ومن مرافقيه في غالب الاجتماعات ومن أصحابه وخاصة أصحابه رحمة الله عليهم أجمعين.

***

طنجة النشأة والمقام

بدأت بقراءة العلم أو (قراءة الأوراق) كما يقول طلبة البادية، وأنا ما أزال أتردد إلى الكتَّاب، ولا أعني حفظ المتون العلمية، فهذا كان مصاحباً لحفظ القرآن في مرحلته الأخيرة، بل المقصود حضور دروس العلم ودراسة مصنفاته على المشايخ العالمين بها، ولذلك ذكرت مصطلح الطلبة في البادية الذي يعبر بقراءة الأوراق.

وكان أول درس بدأت به هو درس الآجرومية وكان في الصباح على الساعة العاشرة وهو وقت دوام في الكتَّاب، فلذاك احتجت لتدخل من الوالد إلى استصدار إذن يومي من المعلم في الخروج من الكتَّاب لحضور ذلك الدرس في مسجد القصبة، وكنا يومئذ ما تزال سكنانا بوسط المدينة، فكان صعودي إلى القصبة بحد ذاته مشكلة لصغر سني، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وكان الأستاذ المدرس هو الفقيه السيد عبدالسلام بن الأشهب، أصله من قبيلة وادراس، طلب العلم بالبادية ثم بفاس، واستوطن طنجة، وكان في ذلك الوقت إماماً للخمس بمسجد القصبة وخطابته، ويتطوع بدرس في النهار



وآخر بالليل في هذا المسجد، وعادة يكون درس النهار في النحو إما بالآجرومية وإما بالألفية، على حسب رغبة الطلبة، ودرس الليل بين العشاءَين هو في الفقه وبمتن ابن عاشر، وكان الطلبة المبتدئون يحرصون عليه لجده وفصاحته وحسن تفهيمه وتقريره، وهم مختلفون في السن والإدراك، فينزل معهم إلى المستوى الذي يليق بكل منهم، وكان يجعل عرض الدرس أو ما يسمى عند الطلبة بالسرادة مناوبة بينهم ليتمرن السارد على القراءة بين يدَيْ الأستاذ وبمتابعة الطلبة الآخرين، حتى ينطلق لسانه ويتعود على الإلقاء الصحيح وتزول عنه الدهشة.

وكانت قراءة الآجرومية في المغرب وجامعة القرويين في فاس بشرح الشيخ خالد الأزهري. وكنت أنا أطالع لتحصيل الدروس نحواً من عشرة شروح عليها، كلها توجد في خزانة البيت، فبالإضافة إلى الأزهري، حاشية ابن الحاج عليه، وحاشية المهدي الوزاني، وشرح المكودي، وشرح السوداني والعشماوي، وجبريل وابن عجيبة، والشريف، وهو أول شرح وضع عليها، وغيرها ولما جاءت نوبتي في السرادة كانت هي (النصاب) أو ما يعبر عنه في الاصطلاح الأزهري بالشرق (بالدولة) الذي كتبه الأزهري على قول المتن في باب الإعراب (لفظاً أو تقديراً) وهو مادة طويلة بالنسبة إلى الطلبة المبتدئين، نوّع الشارح فيها الأمثلة بحسب ما يظهر إعرابه وما يقدر، فحين أذن لي الأستاذ بالسرادة انطلقت لا ألوي على شيء كأني في حلبة رهان لم ينقطع نفسي حتى أتيت على آخر المادة بدون تلعثم ولا توقف ولا



لحن مطلقاً، والأستاذ ينظر إليّ والطلبة ينظر بعضهم إلى بعض، وأكثرهم تكون مادة السرادة له بمقدار الربع أو أقل من مادتي وهم مع ذلك يقرأونها كأنهم يتهجونها فضلاً عن اللحن الفاحش الذي يدل على أنهم لم يحصلوا ما قرأوه. وقمنا لنسلّم على الأستاذ فسألني: مَن أنت؟ فقلت له: فلان بن فلان، فقال لي: هل يطالع أبوك معك، بمعنى يذاكر حسب التعبير المدرسي الجديد، فقلت: لا، وهو الواقع، فدعا لي، وصار إذا كانت النوبة في طالب لم يحضر يكلفني بالسرادة نيابة عنه، وكان يطرز الدروس ببعض القواعد الشكلية يلقنها لنا تلقيناً ويكررها كثيراً لنحفظها كما يفعل في تقريره لألفاظ المتن وشروحها، ويستشهد ببعض النصوص المنطوقة كلما دعت الحاجة حتى حفظناها من لفظه كقول القائل:

تعذراً في الألف استثقالاً

في الواو والياء فخذ مثالا

إلخ، وقول الآخر:

والمفرد اجعل في الندا وباب لا

ما ليس بالمضاف والمماثلا

إلخ...

وهذه النصوص أكثرها مذكور في حاشية الشرح ولكن الطلبة يغفلون عنها ومنهم من لا يفهمها، ويستشهد كذلك بألفاظ الألفية، مثل قولها: (ونصبه ظهر) ولا سيما عندما



يخالف الطالب عند السرادة القاعدة فلا يظهر الفتحة في المنقوص، وهكذا كان يشوقنا إلى الألفية ويمرننا على فهم بعض أبياتها، ولما ختمنا الآجرومية في بضعة أشهر أراد بعض الطلبة أن يطلبوا من الأستاذ قراءة ختمة أخرى، وبعضهم أن يطلب منه قراءة الألفية، وكنت أنا من هؤلاء وقلت لهم: إنه يجب علينا أن نكرم الأستاذ بمناسبة ختم الآجرومية فجمعنا بعض الدراهم وأقمنا مأدبة غداء في بيت لبعض الفلاحين من أصحاب الوالد، وحضر الأستاذ وبعد تناول الطعام والجلوس للمذاكرة لم يكن يتجاوب معه إلا عبد ربه والسيد محمد الطويل وهو طالب من قبيلة بني مصور كبير وهو سارده في درس ابن عاشر بالليل، أما الباقي فكانوا عنه لاهين وربما تصرفوا تصرفات صبيانية فاستعجل القيام بعذر صلاة العصر، وذهب هو والسيد الطويل الذي كان يخدمه ويلازمه وانتفع به كثيراً، وأولاد الطويل في بني مصور أشراف عباسيون.

وأجمعت أمري على دراسة العلم، أولاً لأنه قدري الذي لا أحيد عنه ولا رغبة لي في غيره، وثانياً للتخلص من ضياع الوقت في الكتّاب إذ لم يبقَ لي فيه أرب، والمعلم يتمسك بي لأني أعينه في تكتيب الأولاد الصغار، وللإلف الذي يحصل للمعلم على طلبته الذين يتخرجون به، فلا يسهل عليه فراقهم، وخصوصاً بالنسبة إليّ فقد كان يعدني كأبنائه بل كان يفضلني عليهم في العناية والحرص على تحصيلي، ولكني كنت أحرص على منفعتي فحين فتح أستاذي ابن الأشهب درس الألفية كنت من أوائل الحاضرين



له، وبحثت عن دروس أخرى فوجدت درساً آخر للألفية وهو درس الفقيه العلامة السيد أحمد أبي العيش المعروف بمصباح، لقباً شائعاً في فريق من أشراف أولاد أبي العيش القاطنين بقبيلة أنجرة، وكان درساً رفيع المستوى، فلزمته، وهو ممن درس بالبادية أيضاً وبفاس، وأطال المكث بها وأخذ عن جلّة علمائها كالشيخ سيدي أحمد بن الخياط وسيدي محمد بن محمد بن عبدالسلام گنون، وكان كثير اللهج به، ويحكي من تحقيقه واطلاعه الشيء الكثير، ثم ظهر له مع الطلبة الملازمين لدرسه هذا أن يقسمه فيجعله درسين؛ أحدهما: من أول الألفية إلى الإضافة، والثاني: من الإضافة إلى الختم ليتمها بسرعة، فحضرتهما معاً، واستغنيت عن ألفية ابن الأشهب لمشقة الطلوع إلى القصبة، وعدم تمكني من حضور دروس أخرى بالمسجد الأعظم.

ودائماً مع الألفية، فقد طلب جماعة من الطلبة قراءة الألفية من العالم الجليل سيدي أحمد بن عبدالسلام السميحي، فلبّى طلبهم وكان يقرأها بعد صلاة العصر بالزاوية الوزانية بحي بني يدر لقربها من داره، فحضرت عنده من أولها إلى أبواب النداء، وكذلك طلب آخرون من أخيه العلاّمة الصالح سيدي محمد أن يقرأ معهم الألفية وعقيدة السنوسي بحاشية الباجوري فحضرتهما لمناسبة الوقت وعدم تعارضه مع غيره، وكانت قراءته رحمه الله متأنية متمهلة كثيرة الاستطراد والتوسع في المادة باستحضار الشروح المختلفة وسردها وتتبع فوائدها وما تثيره من أبحاث حتى لقد مرت سنة كاملة ولم نتجاوز باب الابتداء، فتخلف



غالب الطلبة، وكان بعضهم من العدول والموظفين، ولم يبقَ من الملازمين غيري وغير الطالب الأنجب السيد أحمد صالح رحمه الله.

وافتتح الوالد من أجلي ومن أجل الأخ عبدالحفيظ ختمة من الألفية بشرح المكودي وتوضيح ابن هشام، وكانت ختمة حافلة قضينا فيها أكثر من سنة، واجتمع لها الطلبة من مختلف الطبقات، وكانت ألفيته رحمه الله ممتازة بكثير من المزايا كتحقيق الشواهد وشرحها، وإضافة أحكام تعادل تارةً ما عند ابن مالك في كل باب وتكمل تارةً أخرى بعض ما بقي عليه، وهي منظومة مما ذيل به العلماء الألفية أو ذيلها بها هو.

وهذا إلى دروس الفقه بالشيخ خليل عليه وعلى الفقيه مصباح وغيرهما، وتحفة ابن عاصم، ورسالة أبي زيد القيرواني، وابن عاشر، والسنوسية بشرح صاحبها، ولامية الأفعال، وجمل ابن المجراد، والمنطق ونظم الاستعارة، والتلخيص للقزويني بشرح السعد، والورقات لإمام الحرمين، وابن السبكي بشرح المحلي، وتفسير القرآن بالجلالين، والسيرة النبوية بالبردة والهمزية، والشفا للقاضي عياض، والشمائل للترمذي، وغير ذلك. ولا أنسى أن بعض هذه العلوم مما أخذته عن العلاَّمة المحقق السيد عبدالسلام غازي كالسعد والهمزية والخزرجية في العروض، وكان من جهابذة علماء فاس الذين أوفدهم السلطان لتصفُّح الرسوم العدلية ومراجعة أحكام القاضي الشرعي مراجعة تقوم مقام الاستئناف قبل تأسيسه، تلبية منه لطلب الأجانب الذين كانوا



يلاحظون على جعل أحكام المحكمة الشرعية نهائية في حين أنها لا تعدو أن تكون محكمة ابتدائية، وكان ملحقاً بدار النيابة السلطانية كمستشار شرعي، وذلك قبل إنشاء النظام الدولي بطنجة، أما بعده فكانت الأحكام تستأنف بالرباط حيث توجد محكمة الاستئناف التي عين شيخنا عضواً بها لمدة، ثم عاد إلى طنجة بصفة قاض شرعي حتى توفي رحمة الله عليه.

وتتبع هذه المرحلة من دراستي يطول، ولكني أزيد على ما ذكرت دراسة الحديث، فكان الوالد بها قيّماً وعليها مواظباً، بحيث ختم البخاري وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك، وكانت دراسته لهذه الكتب دراسة بحث ونظر واستنباط ودامت مدة إقامته بطنجة منذ هجرته التي انتهت إليها، وكانت دراسته لها ليلاً في سائر العام ونهاراً بخصوص الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، وكنت أحضرها وأنا ما أزال بالكتّاب وقبل حفظي للقرآن بإلزامه لي بذلك لأنها كانت بين العشاءين، ولم يكن وقت مداومة في الكتاب كما سبق القول، وانتفعت بهذه الدروس نفعاً كبيراً، وأعانتني على تفهم أعمق لسائر العلوم التي قرأتها من فقه وعربية وتاريخ وأدب، ووسعت مداركي وآفاق معرفتي بالدعوة الإسلامية والإصلاح الاجتماعي الكبير الذي أتى به الدين الحنيف، وحلّت لي عدة مشاكل في العقيدة والتشريع والسلوك والأخلاق، لم يحلها لا فقه ولا تصوف ولا فلسفة، وجعلتني أعتقد أن النهضة العلمية والتفتح على الحضارات واصطناع المعارف الكونية الذي تسابق إليه



المسلمون بترجمة كتب اليونان والأمم السابقة إنما انبثق من تعاليم السنة المحمدية التي كانت أعظم حافز للعرب على اقتحام حصون الفنون والثقافات المتنوعة والبحث في أسرار الطبيعة والظواهر الجوية وطبقات الأرض وبدء الخلق وحياة الحيوان وغير ذلك مما ألمع له القرآن الكريم وفسرته السنّة وألمت به استقلالاً، وكنت أستمع إلى إملاءات الوالد وتقريراته على الأحاديث باهتمام كبير وتسبح بي الفكرة في أجواء بعيدة، وتوحي إليّ بشروح وتعليلات لم يتطرق إليها الشرّاح فأسجلها تارة وأهملها أخرى، ولهذا لم أترك الحضور في درس الحديث للوالد حتى بعد أن انقطعت إلى الدراسة الفقهية وغيرها.

وباستثناء الوالد رحمه الله لم يرشدني أحد إلى أي فقيه أجلس عليه أو آخذ عنه، وبقيت الخيرة لي دائماً فيمن أقرأ عليه ومَن لا، وكان أحدهم يلتقي بالوالد وأنا لا أزال بالكتَّاب، وكان الوالد يحتفل به حيث يسلّم عليه، ويقول لي: سلّم على الفقيه، وأنا حين أنظر أرى رجلاً ما زال في الثلاثين أو الأربعين متأنقاً في ملبسه وبيده عصا بمقبض فضي، وفي فمه سن ذهبية وهي من تمام الزينة في ذلك الوقت فلا أتصور أن هذا يكون فقيهاً، وكان حديثه رحمه الله عن أحدهم وهو شيخ عليه كل مظاهر أهل العلم بما يشكك في علمه وفي سيرته أيضاً، فكان ذلك كافياً لي في عدم الجلوس بين يدَيْ هذين إطلاقاً، وكشف الحال بعد ذلك أن الأول: لا بأس بعلمه واطلاعه، وأن الثاني: زائف في هذا الباب كما هو زائف في الناحية الخلقية برغم تظاهره بالتقوى



والصلاح، وكان الطلبة الرفقاء يأتون ليقولوا: بدأنا في قراءة الفن كذا على فلان، أعني الشيخ الثاني، فلا يستفزني ذلك طبيعة، ولكنهم ما يقضون يومين أو ثلاثة حتى ينفضوا من حوله.

ثم بعد ذلك كانت دراستنا الأولى منصبّة على العناصر الضرورية للتثقيف واللغة وما يتعلق بها، ثم ما كانت الدراسة تدور حوله أي الإسلام والتشريع الإسلامي وعلومهما، ولا أذكر لفظة الثقافة لأنها لم تكن مستعملة آن ذاك فيما بين الطلبة وأهل العلم، وكان مدلولها لغوياً محضاً، التثقيف الذي يأتي من أصل ثقف الشيء علمه أو ثقف السنان أو الرمح... ما كان يستعمل هو التحصيل، والإنسان يحصل جانباً من المعرفة في الاتجاه الذي يفضله. كانت جماعة من الطلبة تفضل دائماً الفقه وما إليه، لأنهم ينظرون إلى مستقبلهم ولا يضمنون هذا المستقبل إلا في هذه الدائرة الخاصة فيكونون إما عدولاً أو قضاة، فهم يحضرون لهذا المستقبل في الدروس الثقافية المتعلقة بالتشريع الإسلامي والفقه. وهؤلاء أغلبهم من البادية، ونظرتهم هذه صحيحة، لأنهم سيرجعون إلى قراهم، فيتعلق الناس بهم، ويسألونهم عن مسائل الدين والرسوم والعقود والدعاوى، فيجب أن يجدوا لديهم جواباً. وكل واحد منهم يتعلق أول ما يتعلق بالعدالة ثم ينظر إلى القضاء. فهذه طبقة من الطلبة كانت غايتها هي أن تثقف أو أن تحصل، وهذه هي اللفظة الملائمة، وكثيرون كانوا لا يحضرون معنا في الدروس الأخرى. وإن كان هذا لا ينفي أن من بينهم بعض



الأفذاذ القلائل الذين كانوا يهتمون أيضاً بقضايا الفكر والعلم والتحصيل العام. الطلبة الذين كانوا نبهاء، كانوا يتخذون الأسوة من أساتذتهم، يقارنون بين هذا والآخر، فيجدون بعض المميزات التي لا توجد في باقي الأساتذة، بل لدى واحد منهم أو اثنين أو ثلاثة، فيلازمون هؤلاء، وكما يقال: «لا تعرف خطأ شيخك إلا إذا جالست غيره»، دائماً كان هناك علماء يخوضون في مختلف العلوم التقليدية، ويعطون المثل، ويقدمون النصيحة للطالب. حينئذ تتفتح أفكاره على ما ليس يقبل عليه الجميع.

لكن بالنسبة للأدب فالواقع أنه لم تكن هناك ثقافة أدبية رسمية، أو مطروحة في الساحة، بل كان الذين يتشوقون لهذه الثقافة يلاحقون ويتابعون الشخص الذي يعتقدون أنه كفء، وأنه قادر على مدهم بعطاء أدبي. يعرف أنه يكتب رسالة ممتازة، ويخطب خطبته من صنعه، لا من الكتب المطبوعة للخطب، أو هو في بعض الأحيان يكون من شغفه بالأدب يقترح دروساً على الطلبة، يقول: تأتونني في الوقت الفلاني، خارج الأوقات التي نعمل فيها، لنقرأ كتاباً أدبياً، فكثير من الطلبة كانوا متفتحين، يحضرون لهذه الدروس فيتكونون. ومع ذلك فإن مثل هذا التكوين لم يكن يكفي، لأن أغلب هؤلاء كانت ثقافتهم أو حصيلتهم العلمية قديمة، ـ وليس هذا بنقيصة ـ لكن بالنسبة لمن يطمح للجديد عليه أن يبحث في مجالات أخرى، وأنا من الجيل الذي لما فتح عينيه ـ لحسن الحظ ـ كانت في العالم العربي حركة ونهضة وتجديد، ولم يمر المغرب بهذه التجربة،



تونس هي الأخرى لم تمر بها. كان ذلك في مصر والشام (ونقصد بالشام سوريا الكبرى والعراق)، فكانت الكتب والمجلات والصحف تفد علينا من الشرق نطلع فيها على ما لا نعثر عليه عندنا، والصحافة التي كانت عندنا في المغرب كنا نجد فيها كلاماً فارغاً لا حصيلة له، كانت صحيفة السعادة مثلاً، وكذلك صحف تأتي من الجزائر وتونس، وكلها كلام عادي لا حاجة تجذبنا إليه.

هذه الصحف والمجلات كنا نحصل عليها بصعوبة، لا لأنها كانت ممنوعة، ولكنها قليلة فالتوزيع غير منظم، ونحن الذين كنا دائماً نقترح على الكتبي أن يأتينا بهذا الكتاب أو ذاك من الكتب التي كنا نجدها في قوائم الإعلانات. وتمر مدة طويلة حتى يصل الكتاب. يمكن أن تطول المدة سنة أو سنتين. وكذلك تأتي الصحيفة أو المجلة من غير انتظام، وكانت أعظم مجلة في نظري هي المقتطف، التي أدت مهمة للغة العربية والمثقف العربي. كانت مجلة تكتب في الأبحاث العلمية، إذ نشرت ترجمة لنسبية إنشتاين، وكنت أتتبعها وأتعمق فيها، وتكتب المقتطف بلغة عربية رائعة. كانت (الهلال) أيضاً، لكن الهلال ذات صبغة أدبية واجتماعية، تنشر دراسات أدبية غير معمّقة، وتراجم بعض الأشخاص، وأخباراً منوعة. هذا كان في الثلاثينات، وقبلها في باقي العشرينات ونحن كنا صغاراً، ومن أكبر منا يقرأون (المؤيد) و(اللواء) وهذه الصحف كانت تصل منها أعداد متفرقة، فتحت عيني فوجدت بعضها، لأن أخي محمداً كان يشتريها، وكذلك أبي، حتى الاستقلال. وكنت جمعت

عشرات الآلاف من الصحف من العالم العربي، وأهديتها للخزانة العامة بالرباط، لأنني لم أعد أجد لها مكاناً في بيتي، جمعتها وأرسلتها في أربع عشرة قطعة كقطعة التجار، أتيت بالخيش وناديت على من جمعها وأرسلتها في رحلتين. هناك (الأهرام) (الجامعة العربية) وكانت تصدر بالقدس عن الهيئة العربية العليا لفلسطين، وهناك أيضاً صحف تونس مثل (نشيد الأمة) و(الزهراء) ومن الجزائر (النجاح). فهذه كلها كانت تأتينا بمادة نطور بها معلوماتنا ومعارفنا. والكتب تميز هذه الفترة، ولها ميزة يمكن أن أقول: إنها غير موجودة الآن، وكانت تختص بالعالم العربي، ولا أظن أنها كانت في جهات أخرى، حتى في العالم الغربي، إذ كان المثقفون العرب بالإنجليزية والفرنسية، بالإيطالية وبالروسية، يترجمون أدب مرحلتهم، فنحن قرأنا تولستوي ودوستويفسكي في ذلك الوقت. كانت الترجمة مزدهرة على يد أدباء فلسطين، ولبنان، وسوريا، ومصر، وهي ظاهرة مدهشة في الثقافة العربية، من خلالها تعرفنا على العالم، فيكتور هيجو، راسين، غوتة، أسماء كثيرة وأعمال عالمية.

طنجة ليست كفاس، الطلبة الذين كانوا يقرأون معنا هم من حافظي القرآن والمتون، فلم أكن أستفيد منهم شيئاً على الإطلاق، كنت أصغرهم، وكلهم باللحى، كلهم فقهاء، عكس ذلك كنت أخالط طلبة المدارس العصرية، فهم يميلون إليّ ليأخذوا العربية، وينظرون إليّ نظرة تعجب وأنا صغير.

كان لدينا في طنجة طبيب يسمى هيمنا لجي، وهو



مدير معهد باستور للأبحاث، كان منقطعاً للعلم، ترك زوجته وأولاده بفرنسا وجاء للمغرب، كان يلتقي بنا، أصدقائي يتكلمون معه بالفرنسية فيقول لهم: هذا (savant) عالم.

ولقد مررت في حياتي الدراسية بمرحلتين أساسيتين: المرحلة التي كنت فيها أحب الذهاب إلى فاس لأختبر معرفتي. أذهب إلى فاس، وأحضر دروس العلماء الكبار الذين أعرفهم، ويدوم ذلك مدة أسبوع أو أسبوعين. مرة ذهبت فوجدت الدروس غير منظمة، هذا العالم لا يحضر اليوم، ذاك لم يأتِ البارحة. تنظيم ضعيف، صعدنا أنا وابن عمي في عقبة الطالعة فوجدنا مولاي عبدالله الفضيلي، وهو من العلماء المعروفين، ذهبنا، سلّمنا عليه، فسأل عني، مَن هذا؟ قال ابن عمي: هذا ابن عمي من طنجة، قال لي: أتيت لتدرس هنا؟ قلت: أية دراسة عندكم هنا بفاس؟ قال لي: تدرسون الشيخ خليل؟ قلت: ثلاثة أساتذة، الأصول؟ قلت: أستاذان، وأضفت: أنتم تدرسون الحديث؟ فذكر لي أن الحديث لا يدرس بفاس. وكان هذا عكس مدينة طنجة، البخاري، مسلم، الموطأ، ونزعت من بالي فكرة العودة إلى فاس.

والمرحلة الثانية هي التي سافر فيها عبدالخالق الطريس، الفقيه الطنجي، المكي الناصري، عزيمان، كلهم سافروا إلى مصر بقصد الدراسة، كدت أُصاب بالجنون، كنت أنا الآخر أريد السفر لأتفتح أكثر، أبكي ليل نهار، أمي قبلت بفكرة سفري، أما أبي فلم يقبل، وأقسم ألا أفارقه.

ولا أقول بأن هذه الدروس وهذه العلوم، هي ما شكلت حصيلتي، أو ما حدد تكويني، ذكرت سابقاً



المطالعة، مطالعة الصحف والمجلات، والكتب الوافدة علينا من المشرق، ألتهم الكتب، كتابين في اليوم من الحجم المتوسط، من هنا كان التكوين الثقافي العام، كذلك الفرنسية التي أخذت في دراستها، أما الإسبانية فقد تعلمتها من الشارع وأصبحت أتقنها فيما بعد.

أصدقائي الذين كانوا يعلمونني الفرنسية وأعلمهم العربية، وهم من تلاميذ المدارس العصرية، كانوا يتوفرون على كتب فرنسية، وكان يكفيني أن أرى عنوان الكتاب لأحفظه، السينما أيضاً كنت شغوفاً بها، عنوان الفيلم بالفرنسية يظل ثابتاً في ذاكرتي، وهذا هو الأساس، ولا أنكر أن المعرفة لا تتم إلا بالتفاعل، فكل معرفة تفيد في إضاءة المعرفة الأخرى، لذلك فأنا كنت أجد ما ينفعني فيما أقرأه، دائماً هكذا كانت الدراسة، والمراحل الأولى من التثقيف، فمنها ما هو تقليدي، ومنها ما هو عصري، وابتدأت الكتابة، وهذه المرحلة سأتحدث عنها فيما بعد.

ولما بلغت التاسعة عشرة غامرت بإلقاء الدروس لا سيما في الزاوية التيجانية، أما ما قبلها فكانت دروس أخرى بناءً على رغبة مجموعة من الطلبة، وقد طلب مني جماعة من الشيوخ أن أدرس بالزاوية فاستحييت من أولئك الرجال، واضطربت الزاوية نتيجة خلافات شخصية بين القائمين عليها فقررت أن أعتزل دروس الزاوية ولكنني استحييت، وكان الوالد قد استحسن ما فعلته لما عدت إليه، ولم تستقم حالة الزاوية في الإمامة بعد ذلك، وصاروا يقدمون ويؤخرون مدة طويلة إماماً بعد إمام.



استحييت من أولئك الرجال وقد كان أكثرهم في سن الوالد وفتحت عيني عليهم وأنا طفل صغير، وكم فرحوا بي وأكرموني، فلم أملك إلا أن قبلت عرضهم ووافقت على إلقاء دروس بين العشاءين في الزاوية كل يوم، وكنت أصلي المغرب بالمسجد الأعظم وأقرأ ما شاء الله من الحزب ثم أذهب إليهم فأجدهم يقرأون الوظيفة، وربما وجدتهم قد فرغوا منها وهم والناس معهم من غير التيجانيين ينتظرونني.

وقرأت في جملة ما كتب لي أن أقرأه نظم ابن عاشر ومختصر ابن أبي جمرة، وطرفاً من السيرة النبوية في أواخر صفر وأوائل ربيع الأول، بقصيدة الهمزية للبوصيري، وكنت أقرؤها بسبعة علوم زيادة على السيرة، فأبدأ أولاً باللغة ثم بالتصريف، ثم الإعراب، ثم العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ثم العروض، وأخيراً السيرة وهي العلم الثامن، وطار لي بذا الصيت في الأوساط الطلابية بالمدينة، فصار كثير من المنتسبين للعلم والطلب يأتون ليسمعوا ويروا، وبعض أهل العلم يسألونني عن الشرح الذي اعتمدته في المطالعة، وهل عندي شرح غير ما يوجد بأيديهم، وهو شرح بنيس أو ابن حجر؟ فأقول لهم: لا... والأمر إنما كان تحضيراً وترتيباً لما يتطلبه الموضوع، فبدل أن أتكلم على لفظة لغوية مثلاً عبر الشرح أقول ما في البيت من اللغة وكذا التصريف والإعراب وهلم جراً، ثم ما يذكره الشرّاح من بعض المعاني البلاغية، ولكني أرتبها فأقول المعاني، وقد لا يكون الشارح تعرض لشيء من ذلك، ولكني أتأمل البيت فأطبق عليه قاعدة من قواعد الصرف، وأما العروض



فلم يكن الشرّاح يتعرضون له بحال، فأشير إلى ما في البيت من زحافات أو علل جائزة وأستشهد على ذلك بالخزرجية، وفي النهاية أقول العلم الثامن وقد تضمن هذا البيت كذا وكذا.

وكان القاضي في ذلك الوقت يقرأها في المسجد الأعظم ويقرأها على العادة، فيقارن الناس بين القراءتين، ثم إني استأنفت قراءة الصحيح من المكان الذي تركه فيه الوالد، ودأبت على ذلك أيام السنة إلا في رمضان فكنت أقرأه بالمسجد الأعظم بعد العصر وقراءة الحزب. واستمرت قراءتي بالزاوية التيجانية نحو خمس سنوات، وكانت تحصل مني وقفات عند بعض الأحاديث أتطرق فيها للحوادث الوقتية والأحوال الراهنة، مما يعتبره الناس في ذلك الوقت تدخلاً في سياسة الدولة، وبلغ ذلك إلى الجهات المسؤولة، فصار بعض المشبوهين يحضرون دروسي ويتناقلون ما يصدر مني في هذا الصدد ويرفعونه إلى أسيادهم مزيداً ومبالغاً فيه، فحدث أن مراقب الولاة وهو فرنسي يسمى طروشي، وكان قبل طنجة في فاس، وشارك في القمع الذي وقع أيام المظاهرات والاحتجاجات على الظهير البربري، فقام ولم يقعد واستدعى بعض أعيان الفقراء التيجانيين، وقال لهم: إن الطعن في الدولة والتشهير بها يجري يومياً في زاويتكم وأنتم راضون ومتقبلون له، فقالوا: وممن يكون ذلك؟ قال: من المدرس عندكم الذي هو عدو للدولة، قالوا: المدرس عندنا هو فلان، وهو ابن شيخنا ورجل فاضل لا يصدر منه شيء من هذا القبيل، قال: إنكم لا تعرفونه، والآن لا بد



أن تنهوا مهمته عندكم. . . ولا أحتاج إلى القول إن القوم خافوا وجلهم له مصالح وعلاقات بالمتولي، فاجتمعوا في الزاوية خفية وكلفوا بعض خدام الزاوية بأن يبلغني الأمر وأن أحذر العاقبة، والأحسن أن أغيب بعض الأيام حتى يعالجوا المشكل، ولما بلغني الخبر علمت أنهم استحيوا مني، وكنت أنا قد مللت من الدراسة في الزاوية لما تكتنفها من ظروف وملابسات فانقطعت عنها بتاتاً.

والغريب في الأمر أني كنت أرى الوالد في النوم، وهو يستدرجني في الطريق إلى أن نبلغ الزاوية فيغيب عني، وأراه ونحن في الزاوية والحلقة معقودة ولكنه يأمرني أن أقوم أنا وأتصدرها للتدريس دونه، في أمثال لهذه الرؤيا أو تلك، وذلك لمدة طويلة بعد انقطاعي عنها ولكني لم أتأثر ولم أرجع.

ومما ينبغي أن يسجل في هذا الصدد أن هذه الأعمال برغم أنها دروس علمية دينية الصبغة كانت تعتبر عملاً وطنياً تراقب من طرف الجهات المعنية، نظراً لصفة القائم بها وشهرته عند الإدارة بالوطنية، فهي لا تأمن أن تكون وسيلة لإذكاء الشعور الوطني في عموم الناس وحضهم على التمرد والثورة، ومن ثم جاء ما قاله المراقب الفرنسي طروشي لجماعة التيجانيين ووصفه لي بعدو الحكومة ورجال الدولة، ومن الطريف في هذا الباب ما قاله لي بعد سنين من تركي للتدريس في الزاوية أحد الفقراء من عامة الشعب، وكان يعمل بصفة إسكافي، وكان متحمساً للطريقة ويحضر دروسي دائماً، وكان في عنفوان شبابه وقوته إذ ذاك، وفيما بعد



انخرط في حزب الاستقلال ولعب دوراً في فرع طنجة، وتطور واشتغل في عدة ميادين من السمسرة والفلاحة وغيرها، وما قاله لي هو: «إننا أردنا أن نصطادك للزاوية والطريقة فاصطدتنا، وفتحت أعيننا وعلمتنا أشياء كثيرة كنا نجهلها وأصبحنا مدينين بها لك».

وحديث الوطنية طويل، ويدخل في كل مجالات القول والعمل، وكان ينتقل من جهة إلى جهة، ويتداول في كل بلد ممن هدي إلى طريقه وقام بواجبه، وكانت موجباته متشابهة في كل مكان، وهي عجرفة المستعمر والحكم الاستبدادي الذي تنهج الحماية الأجنبية منهجه، وقد كان المحميون حتى قبل الاحتلال مكروهين من الناس ذوي المروءة والدين، لجنوحهم إلى الأجنبي، وخروجهم على الحكم الوطني، فهم في الاعتبار الذين فتحوا طريق هذه البلية، وهيأوا للحماية الجماعية للبلاد، ولذا فإن أياً كان لم يمل الوطنية على غيره ولا جهة من الجهات ولا جنوب ولا شمال. . . وإنما كان هناك وطنيون مخلصون يعملون لمصلحة بلادهم ويتحرقون لاستقلالها وإقالة عثراتها، كل بحسب ما يستطيع وعلى قدر ما تتيحه له ناحيته، تعارفوا من بعيد واتصلوا ونظموا علاقاتهم وصمموا على العمل الجدي المتواصل، وهو ما تجسم قبل في الجمعية السرية ثم في كتلة العمل الوطني ثم في الحزب الوطني عام ١٩٣٦.

وكان أول تواصل بيننا في طنجة وخارجها مع تطوان، وجاءنا الأخ الحاج محمد بنونة، ثم بعده أخوه الحاج عبدالسلام، وكأنما اكتشف بعضنا بعضاً، وقد أخذت لنا



صورة في هذه المرحلة، ويظهر فيها الكاتب والحاج محمد بنونة والسيد محمد الحداد والسيد المختار أحرضان والسيد محمد أقلعي، وأخبرنا بنونة أنه سافر إلى الرباط وفاس ولقي هناك جماعة منهم الحاج محمد بن اليمني الناصري، والسيد محمد غازي، والسيد محمد المكي الناصري وسواهم، وسافرت أنا بعد ذلك مع الوالد إلى الرباط ولقيتهم واجتمعنا كثيراً، ودبرنا الأمور على ما يجب من التواصل والتنظيم.

وزارني الأستاذ محمد داود وكان يتفجر نشاطاً وغيرة ووطنية، وتذاكرنا كثيراً، وسألني عن مقال نشر بإمضاء مستعار، فأخبرته أنه إمضائي، فقال لي: لقد كان مقالاً يفيض حيوية، فحرصت على معرفة صاحبه، وتوطدت بيني وبينه صداقة متينة.





لقاءات على الصعيد الوطني

بعد التعرف على مراكز العمل الوطني المهمة وتبادل الرسائل فيما بيني وبين بعض العاملين بها، عزمت على زيارتها والاتصال الشخصي بهم، فكانت تطوان أول مركز زرته لهذا الغرض، والسفر إلى تطوان في ذلك الوقت، كان سفراً بمعنى الكلمة، إذ كنا نقضي في الطريق وبالحافلة العمومية ثلاث ساعات وأربعاً وأكثر، لأن الطريق كان محفوفاً بالأخطار، معرضاً لاصطدام بين المجاهدين وقوات الاحتلال الإسبانية، فكنا نتوقف في محطات لمجرد الخروج من المنطقة الدولية، منطقة طنجة، ويسأل سائق الحافلة بعض موظفي الأمن هل يمكن مواصلة السير بدون تعرض لأي خطر، وتقع مخاطبة هاتفية عسكرية بين المسؤولين، في أولى المحطات والتي تليها، فإذا كان الجواب بسلامة الطريق أعطي الإذن بمواصلة السير، وهكذا في بقية المحطات، ويطول الانتظار لأن الخطوط الهاتفية كانت في الغالب غير صالحة، وفي بعض المحطات وهي المتوغلة في التخوم الجبلية كان التوقف يطول كثيراً؛ لأنه يقتضي خروج فرقة من الجند الخيالة تتحسس الطريق، فلا بد من انتظار



عودتها وإخبارها بحالة الطريق من سلامة وخوف، فتمر الساعة والساعتان على هذه العملية، والحق أن إخوتنا المجاهدين كانوا يحترمون أمن الطريق والمواصلات الأهلية، إذ لم نسمع قط أنهم هجموا على سيارة مدنية أو تعرضوا لرحلة غير عسكرية. كانت زيارتي هذه فرصة لعقد اجتماعات مع جميع الأشخاص المشتغلين بالقضايا الوطنية، وهي في الواقع قضية واحدة ولكنها تحتاج إلى تدبيرات وأعمال في شتى الميادين، من اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها، كما أنها تقتضي عملاً في الخارج كالعمل في الداخل، وإن كان من طبيعة أخرى، وكان الحاج عبدالسلام بنونة يهتم كثيراً بالميدان الاقتصادي، ومن ثم تحدث إلينا ببعض المنشآت الضرورية ومنها تطوير صناعة النسيج بجلب بعض الآلات الحديثة لإنشاء معمل عصري للنسيج، وتأسيس شركة وطنية لتوليد الكهرباء، وإيجاد مطبعة أهلية عربية وغير ذلك، وقد تم إنجاز هذه المشروعات كلها فيما بعد، وكنت أنا من المتحمسين لفكرة معمل النسيج، وكنت من أول المقتنين لبعض إنتاجه، إذ لم يكن النسيج التقليدي يعجبني لخشونته، وقد كان بعض الأصدقاء أهدى إليّ رقعة صوفية[1] بنية اللون، لأتخذ منها جلابة في فصل الشتاء، ورأيت الجماعة في تطوان حتى المتأنقين منهم كالحاج محمد بنونة يستعملون نظيرتها، فلم توافقني الوالدة وقالت لي: إن أهل تطوان غالبهم من أصل جبلي، فهم يتمسكون

(١) أي: قطعة نسيج صوفي من صنع يدوي.



ببعض عادات أهل الجبل، ولهذا أسرعت باقتناء النسيج الجديد وفصلت منه جلابية وطنية جميلة، وتحدثت إلى الإخوان التطوانيين بما قالته الوالدة على سبيل المفاكهة، فقالوا لي: نعم، نحن جبليون، والانتساب إلى الجبل حينذاك مشرف، لما كان الجبليون يقومون به من جهاد وطني ضد المستعمرين الدخلاء.

وتذاكرت مع الحاج محمد بنونة في قضية التبشير والمبشرين المسيحيين، وجاء في عرض الكلام ما يقتضي ذلك، وكانت هذه القضية تهمني كثيراً لانتشارها في طنجة على يد البعثات الإنجليزية، وكانت هناك دار خاصة بالنساء والمبشرات فيها من النشاط بمكان، يتكلمن العربية بطلاقة، ويتخذن التطبيب وتوزيع بعض الأدوية على النساء الفقيرات بالمجان، ويتخذن علاقات شخصية مع بعض الأسر، فيزرن البيوت المغربية ويبثن سمومهن بين أفرادها من العنصر النسوي، وكانت هناك دار أخرى للمبشرين الذكور، وهم أكثر خبثاً ودهاء، ويستخدمون بعض الشبان المغفلين في الأشغال المختلفة من حراسة وتسويق للضروريات التي يحتاجون إليها من دكاكين البقالة وغيرها، ومنهم من يغررون بها ويحولونهم عن عقيدة الإسلام، حتى أنهم يتولون عنهم القيام بمهمة التبشير لزوار المركز أحياناً.

على أنهم لا يقتصرون على المدينة فيخرجون في بعض الأوقات إلى البادية مصحوبين بالمبشرات الإناث ليختلطن بنساء البادية ويتبرعن عليهن ببعض الأدوية



والحلويات للأطفال، ويكون الخدام المغاربة في رفقة من ذكر لحمايتهم والتوسط بينهم وبين الأهالي.

وقد استغرب الحاج عبدالسلام هذا الأمر، وسألته: هل عندكم في تطوان بعثة من هذا القبيل؟ فقال: لا أظن، وإذا كانت فإنها لا أثر لها في المجتمع، وسألني ماذا نفعل نحن بهذا الخصوص؟ فذكرت له بعض الحركات التي نقوم بها كرد فعل لهذه الحرب الصليبية الجديدة، وقلت له: لا بد من إنشاء جمعية للمقاومة الجادة لهذا الخطر الكبير، فقال لي: اترك هذا الأمر بيني وبينك ولنتداول فيه بطريق المراسلة حتى نتفق على رأي قار وحاسم للقضاء عليه.

وكان من النشاط الوطني الذي قمت به في هذه الرحلة لتطوان زيارة المدرسة الأهلية، وكانت قريبة العهد بالإنشاء، وكانت في دار عادية من الدور المتوسطة، ومع ذلك فقد كان لها في نفوس التطوانيين مكانة عظيمة، لأن إنشاء مدرسة وطنية في ذلك الوقت يعد خطوة عملية في طريق البناء والتطور المنشود، وكان يشرف على شؤونها المادية الرجل العامل المخلص السيد علال الخطيب، وأما التدريس فكان موكولاً إلى الأستاذ محمد داود، يساعده الحاج محمد بنونة وأفراد آخرون من طلبة العلم وحفظة القرآن.

وقد كانت الزيارة ـ سنة ١٩٣٠ ـ بمثابة حفل كبير، ألقى فيه الأستاذ داود كلمة تقديم لي وتوجيه للتلاميذ، وألقيت عليهم قصيدة شعرية كانت حينذاك مفاجأة لهم، إذ الشعر على العموم يعتبر من الكفاءات النادرة، والوطني على



الخصوص فتحاً جديداً في عالم الأدب. ومما أذكره من أبياتها المختارة:

إيه بني وطني فلتنبذوا الكسلا
لعل أن تبلغوا من سعيكم أملا
لا تحسبوا أن تنالوا من رغائبكم
ما لم تسيروا إليها الوخد والرملا
إن المعالي تأبى قرب ذي دعة
حاش المعالي عمن نام أو كسلا
فلتنهضوا نهضة تسموا بموطنكم
إلى الثريا بابتغاء نيل كل علا
ولتجعلوا أسها علماً تقوم به
فالعلم يجنيكم ثماره ذللا
ما ساد من ساد إلا بالعلوم وما
نرى تأخر في الدنيا سوى الجهلا
سر في البلاد وسائل ساكنيها معاً
هل ساس شعباً وقاد الجيش من جهلا
سر في البلاد وقابل من ترى لترى
أن التقدم علم قارن العملا
لا كنت يا جهل كم أبدت من أمم
قد طبقت بسناها السهل والجبلا
لما أنخت بنا صيرتنا فرقا
شتى وأورثتنا الجمود والخطلا



بالأمس كنا كأنا الأسد في أجم
نحمي العرين ممن ظنها نزلا
يهاب سطوتنا من كان شاهدنا
في الحرب ما إن نخاف الموت والثكلا
فكم بسطنا لإفريقية يدنا
وللجزيرة لما أصبحت هملا
ونحن قد طلب العدا معونتنا
واستنجدونا فوافيناهم عجلا
حلم كبير وأخلاق مطهرة
إنا بنو العرب وشينا بها الحللا

وكان في تلاميذ المدرسة حينذاك الأستاذ محمد عزيمان والأستاذ محمد بن محمد الخطيب، وأبناء الحاج محمد بنونة منهم السيد الطيب وغيرهم من التلاميذ الذين نبغوا فيما بعد وصاروا شخصيات يشار إليهم بالبنان.

والحق أن المدرسة الأهلية، وهي في تلك الدار القديمة المتواضعة أعطت من النتائج التربوية والتعليمية ما لم تعطه وهي في بنايتها الجميلة التي وهبتها إياها الحكومة، والسر في الساكن كما يقولون لا في السكن. ومما تذاكرنا فيه مع الحاج عبدالسلام بنونة موضوع الكتابة في جريدة الإصلاح الحكومية، وهي في تطوان كالسعادة في الرباط، واستغلالها لنشر أفكارنا، وكان محررها الشيخ نعمة الله الدحداح وهو لبناني سأله لمَ لا يكتب المواطنون المغاربة في الإصلاح وهي الجريدة العربية الوحيدة الموجودة في



المنطقة، فقال له بنونة: إنها جريدة حكومية لا تسمح لها الجهات الرسمية بنشر أفكار الوطنيين، فقال الدحداح: أنا أتعهد بنشر كل ما يصلني محرراً بأقلام الكتاب المغاربة، وقررنا أن نجرب، وقدمنا للكتابة السيد محمد الحداد من طنجة، والسيد محمد الزواق التطواني من الشباب المتعلم، فكتبا ونشرت الجريدة كتابتهما ولكنها أشعرت بوجوب التوقف عن هذه المغامرة.

وكانت رحلتي بعد ذلك إلى الرباط، وهناك تعرفت بالشخصيات الوطنية البارزة كالحاج محمد بن اليمني الناصري وأخيه السيد محمد المكي، وهو مؤلف كتاب إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة الذي كانت له ردة فعل إيجابية في الحركة الإصلاحية ووقع شديد في أوساط الطرقيين الذين قاموا ولم يقعدوا في استنكاره وانتقاده، فناصره أخوه الحاج محمد بكتاب ضرب نطاق الحصار، وكان الأخوان من أبرز العناصر المثقفة ثقافة أصيلة، ينظمان الشعر ويكتبان ويخطبان في موضوع الإصلاح الديني، وكان الأستاذ محمد غازي المكناسي الأصل ينهج نفس النهج ويأخذ الكتاب بقوة في هذا المنحى، وهو أيضاً ممن تعرفت به هناك فقد كان مقيماً في الرباط، وذكرته هو والناصري الكبير في أبيات شعرية قلتها إذ ذاك منها:

هذا هو الناصري في جماعته
يحارب الطرق أصحاب الضلالات
وهذه فتية الإصلاح يرأسها
غازي العداة حليف الانتصارات



وتعرفت بالسيد أحمد بلا فريج وكان شاباً متوقداً متحمساً للعمل الوطني، ويتابع دراسته هو والسيد محمد بن الحسن الوزاني في ليسي كورو بالرباط وبينهما صداقة متينة، وكذلك السيد محمد الزيزي، والسيد عبدالكبير بن حفيظ الفاسي، والسيد محمد القباج الكتبي، والسيد المختار السوسي، والسيد أبا بكر بناني وغيرهم، وجميعهم كما رأينا ما بين مزدوجي الثقافة، ومثقفين متمكنين من العربية وآدابها وأصحاب أقلام وقرائح منتجة. وقد أنشدتهم من كلامي بعض القصائد والمقطعات كانت محل استحسان لديهم، منها قصيدة: هل أنا أديب؟ التي كانت تمثل ثورة على الشعر الاحترافي الذي كان سائداً إذ ذاك.

وأنشدتهم مرة أخرى بطلب بعضهم قصيدة وصفية صورت بها الحريق الذي أصاب قبة فندق سيسيل، وهي قبة كبيرة من الخشب كانت قائمة على سطح هذا الفندق، وكان بعض الشخصيات من الأهالي والأجانب يرتادونها خاصة في الصيف عشية، ويجلسون بها مقابل البحر يتمتعون بمنظره الجميل ونسيمه العليل، وقد جلسنا بها مع الوالد في بعض العشايا، وقد التهمها الحريق، وكان لهيب النار يضيء ظلام الليل ويرى من بعيد، ومما جاء في هذه القصيدة:

صاح في بوقه نذير الحفاظ
فزعاً يا لهول هذا الشواظ
البدار البدار كي تردعوه
يا لأهل المطافىء في الإيقاظ



قبل أن ينهب الديار التي من
خلفه والأمام نهب شظاظ

فقالوا لي: ما معنى شظاظ؟ قلت: هو اسم لص معروف عند العرب كانت تضرب به الأمثال، فكأنهم لم يقتنعوا، ودعوا بالمنجد فلم يجدوه فبقوا بين مصدق ومشكك، وساءني ترددهم وعجبت من اعتمادهم على المنجد، ولم نكن نحن طلبة القرويين نعول عليه، وقلت لهم: إنه مذكور في أوضح المسالك لابن هشام، فلم يكن عندهم، وقال بعضهم: إن هذا كتاب نحو لا لغة، وأمسكت عن الإنشاد، واستحضرت قصة سيبويه مع الكسائي، وقلت: قبّح الله اللجاج كما قالت زبيدة.

وأيام إقامتي بالرباط حضرت بعض دروس الشيخ أبي شعيب الدكالي الحديثية، ودرساً له في النحو بألفية ابن مالك وشرح الأشمولي عليها في الزاوية الناصرية، وبعض دروس الفقيه الحجوي وغيرهما. وكان شيخنا السيد عبدالسلام غازي آنذاك مقيماً بالرباط وهو ممن شمله النقل من طنجة بعد قيام النظام الدولي بها، فولي عضواً بالاستئناف الشرعي، وكان يخالط العلامة السيد محمد السايح فرأيته عنده أكثر من مرة واستمعت إلى مذاكرتهما وكانت تتناول عدة مواضيع، ومن جملتها ابن عربي الحاتمي وبعض أقواله ومؤاخذات العلماء عليه.

وذهبت من الرباط إلى الدار البيضاء ذات يوم، فلقيت بها السيد محمد بن يحيى الصقلي وكانت له مكتبة تجارية



كبيرة، وهو أديب فاضل له قصيدة في مدح مدينة الدار البيضاء، طويلة النفس طبعها على حدة في كراسة، وبقيت بها يوماً وليلة ثم عدت إلى الرباط، ومنها سافرت إلى فاس وتوقفت في مكناس، ولم أكن أريد الإقامة بها ولكني حضرت بها درس العلاَّمة السيد محمد السوسي في صحيح البخاري مع رفيق لي فأعجبني سمته وطريقة إملائه، مع حفظه وتحصيله، وبقيت هناك ثلاثة أيام من أجله، ولما وصلت لفاس كانت قائمة هائجة بالاحتجاج على الظهير البربري، وقراءة اللطيف عقب الصلوات ولا سيما في القرويين، والحكومة تعتبر ذلك تحدياً لها ويتحدث الناس عن حملة إرهاب تدبرها السلطة المحلية ضداً على المهيجين كما تسميهم، وفي كل صباح ومساء خبر وفي كل اجتماع عادي أو منظم تتقرر خطة عمل ويروج لفكرة تقلق رجال الأمن فتقع السلطة المحلية في حيرة لا تعرف ما تقدم ولا ما تؤخر. وبرغم التهديدات المتكررة باستعمال العنف فإن الرباط لم تأذن في ذلك، حتى انفجر الوضع ووقع القبض على كثير من المسيِّرين والموجِّهين الوطنيين واستخدمت معهم القوة مما أدى إلى كهربة الجو السياسي في البلد ووصل التأثير إلى الأوساط الموصوفة بالرزانة والتروي، وبدأت التحركات لعمل أي شيء يوقف الخطر ويكف يد العدوان على الأشخاص الذين يضمر لهم أعوان السوء العداوة والبغضاء، والذين يستفزون العامة لينتقموا منهم لتأييدهم للحركة الوطنية واستنكارهم لتصرفات الموظفين غير المسؤولين، وقيل: إن مسؤولاً كبيراً في الحكومة سيقدم إلى



فاس لدراسة القضية مع العلماء والأعيان، وشكّ الناس في قدوم هذا المسؤول لأنه بقدر عظم مسؤوليته لا يملك من الأمر شيئاً، ولأنه من أخوف الخلق وأحرصهم على الحياة، وأخيراً اتخذ العلاج في نظر المسؤولين الطريقة القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب، وهي توجيه خطاب من رئيس الدولة إلى جمهور السكان يقرأ في مسجد القرويين ومن أعلى منبر تعوَّد الملوك أن يدلوا منه برأيهم إلى الشعب في أحرج المواقف وأحلك المشكلات، وكذلك كان.

وخلقت لي القضية مشكلاً خاصاً، فقد تلقيت مكالمة هاتفية من طنجة بحلول الأمير شكيب أرسلان بها قادماً من إسبانيا، وتوقف الإخوان بها علي وضرورة وجودي بينهم، وكان الأمير في ذلك الوقت رجل الساعة في العالم العربي والإسلامي، وأكثر الكتاب اهتماماً بالقضايا التحررية في آسيا وإفريقيا، وكانت صلته بنا في المغرب متينة جداً ومستمرة، ونحن بالأشواق إلى لقائه والاجتماع به. أما تاريخ اتصالي بالأمير فيرجع إلى أواخر الثلاثينات حين أبلغني السائح العراقي يونس بحري تحياته، وكان ينشر مقالاته في السياسة الأسبوعية، ومنها مقالة بعنوان ابن بطوطة القرن العشرين (ويعني نفسه) على قبر ابن بطوطة الرحالة الشهير وذلك حين زيارته لطنجة في التاريخ المشار إليه، وقد أجبت على تحية الأمير بقصيدة أقول في مطلعها:

دم حـــامـــلاً عـــلـــم الـــعـــروبـــة
حـــتـــى تـــقـــود بـــه شـــعـــوبـــه

ونشأت الصلة من ذلك الوقت... ولما جاء إلى



طنجة كنت أنا في فاس فلم أعرف كيف أتصرف، أأترك فاس تموج بها الأفكار وجميع سكانها على أحر من الجمر انتظاراً للقادم أو الوارد من الرباط في قضيتنا الوطنية الأولى وما تنتهي إليه، أو أذهب إلى طنجة وأغتنم الاتصال بالأمير شكيب وأتعرف به شخصياً وأحاوره وأستمع إليه، وهي فرصة تتاح للإخوان بطنجة ولا أحب أن أحرم منها، وقلت كما قال جريد العابد: يا رب أمي وصلاتي، على ما جاء في الصحيح؟

ثم رأيت أن ما يجري في فاس هو من وقائع التاريخ التي إذا مرت فلن تعود، بخلاف لقاء الأمير شكيب أرسلان فإنه يمكن أن يتحقق في فرصة أخرى، وحث علي الإخوان في البقاء معهم وقالوا: إنهم أرسلوا من يتصل به وينظر هل يمكن أن يزور أمهات مدن المغرب ولا سيما فاس، على أن الأمير لم يلبث في طنجة إلا يوماً وليلة وأخرج منها بالقوة. ثم أنذرت أنا بالقبض عليّ فغادرت فاساً بعد ثلاثة أيام ولم أكد أفلت مما أنذرت به ووجدت صدى زيارة الأمير يتردد في طنجة وتطوان.

نعود لما كنا فيه من الحديث عن الظهير البربري فبعد انتظار طويل أعلن عن قراءة منشور سلطاني جاء من الرباط بمسجد القرويين، فاحتشد الناس على اختلاف طبقاتهم واجتمعوا في جو مكهرب لا تباشير خير فيه، وقرىء الكتاب فإذا هو تهديد ووعيد، واستخفاف بالقائمين بهذه الحركة وأنهم (صبيان لم يبلغوا الحلم) وعلى العقلاء والأعيان من أهل فاس أن لا ينساقوا في حبال الإشاعات



والأراجيف التي تدور حول الموضوع والدولة معنية بالأمر وهي واقفة بالمرصاد للذين يعكرون صفو الأمن، في عبارات من هذا القبيل جعلت بعض الناس ينصرفون قبل إتمام قراءة الخطاب، وتفرقت تلك الجموع الحاشدة وهي تنطوي على حنق شديد، وتعتقد أن الكتاب مفتعل، وأن السلطان لا يمكن أن يخاطب رعيته بهذه اللهجة في قضية دينية مثل هذه، وكما كان الكثير من الناس يقولون: إن الظهير البربري نفسه صدر بدون إطلاع جلالته عليه ولا موافقته، فقد اجتمعت كلمة الشعب على أن خطاب القرويين مما دبر بين الصدارة والإقامة العامة، ولهذا لم يتراجع متصدرو الحركة والمشرفون على تسييرها، فاجتمعوا في حلقات ضيقة ضمت بعض أعيان فاس وشرفائها وعلمائها ونخبة من الشباب الوطني، وتداولوا في الأمر وقرروا أن يقدموا عريضة إلى جلالة السلطان يستنكرون فيها هذا الظهير والسياسة البربرية من أصلها، وعلى العموم سياسة غلاة المستعمرين وضباط الاستعلامات وكذلك كان، حيث أن وفداً مكوناً من ذوي الحيثيات المذكورة ذهب إلى الرباط برئاسة العلاَّمة السيد عبدالرحمٰن القرشي وقدّم العريضة إلى السلطان.

وفي أثناء قيام المظاهرة وقراءة اللطيف الذي كان على الوجه الآتي: (اللَّهمَّ يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر)، كانت تقع من السلطة المحلية وأعوانها تجاوزات بإلقاء القبض على بعض العناصر الوطنية والمشاركين في هذه الحركة من الأعيان



والتحقيق معهم وسجن بعضهم وجلد بعضهم الآخر، وممن جلد السيد محمد بن الحسن الوزاني والسيد الهاشمي الفيلالي...

واختلت الصفوف في الظاهر فلم نعد نلتقي إلا بالقليل من الإخوان، وكانت أماكن الاجتماع تتغير من يوم لآخر، وزاد الأمر ارتباكاً بعد قراءة الكتاب السلطاني، ولم يقع بعض الانفراج إلا بعد عودة الوفد الفاسي من الرباط.

وفي أحد الليالي من هذه الفترة فاتحني مقام العم السيد عبدالسلام گنون، وكان رب مثواي، بأن عليّ أن أعود إلى طنجة صباح الغد، ولما سألته عن السبب قال لي: لا أحب أن يحملني والدك ابن عمي السيد عبدالصمد مسؤولية القبض عليك وسجنك، فقلت: كيف؟ فأعلمني بعد تكتم شديد أنه علم أن البحث جار عني، ولم يكونوا يعرفونني، ولما علموا أني كنوني صاروا يتحرون عن أبناء گنون من أكون منهم، وأن بعض الموظفين الكبار من أصدقائه الذين يسهرون معه أخبره بذلك، وفعلاً نهض في الصباح الباكر وأيقظني وبعث معي ولده الفقيه سيدي محمد بن عبدالسلام إلى محطة القطار الرابط بين طنجة وفاس، ولم يفارقني حتى أقلع القطار. كنت وأنا أقطع المسافة الطويلة بين طنجة وفاس لا أفكر إلا في الحوادث التي شاهدتها وشاركت فيها أيام إقامتي بفاس، وكانت أطول مدة قضيتها بهذه المدينة في جميع زياراتي لها، والحقيقة أني لم أحقق بها ما كنت أصبو إليه من التعرف بجميع الزملاء أو قل الأقران العاملين في الحقل العلمي والوطني، فباستثناء الإخوان الذين عرفتهم من



قبل كعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والهاشمي الفيلالي وعبدالعزيز بن إدريس ومحمد بن إبراهيم الكتاني ومحمد بن عبدالله وبوشتى الجامعي، لم يكن لقائي بغيرهم إلا في ساحة العمل، مما لم يمكنني من ربط أي صلة خاصة بهم، واجتماعي بجل المذكورين أكثر ما يكون في الإكرامات التي تقام لنا غالباً في وقت الغذاء، وتنتهي سريعاً وينحصر الكلام فيها على ما كان وما سيكون في بقية اليوم ونهار الغد، على أن بعضهم صار يختفي بعد الممارسات التعسفية التي قامت بها السلطة، ولا يظهر إلا حول موائد الدعوات الخاصة التي تقام في بيوت بعض الوجهاء والأعيان، والعذر واضح، وهو تنظيم العمل وتسيير التظاهرات من وراء وراء، على أن بعض اللقاءات العفوية كانت تتم مساء فيما يسمى بجنان السبيل، ويتجاذب فيها أطراف الحديث فريق من المسيرين والمنظمين للحركة، وكثيراً ما كان بعضهم يتهم البعض الآخر من الحاضرين أو الغائبين بالهروب من الساحة وتعمد التخلف تقية وحذراً.

ومن جهة أخرى فقد كانت ملاحظاتي العامة هي أن الحركة الوطنية في فاس مغرية وجدية، تعلم ما تريد وتعرف كيف تشتغل، ولا يمكن أن تقارن بها حركة أخرى في بلد آخر، وبالأحرى عندنا في الشمال، ومن ثم أدركت أن منافستنا لها غير ممكنة مادياً ومعنوياً، لاتساع المجال وكثرة الرجال من المثقفين والغيارى ذوي العلاقات والمتبرعين بالنفقات وسواهم، وعلى توالي الأيام لم أزدد إلا اقتناعاً بهذه النتيجة مع رؤيتي لثمارها. لكن هذا لا يعني عدم



التحرك في مجالنا الضيق وتعاوننا على كل ما فيه مصلحة البلاد خصوصاً وأننا نقع في الوسط ما بين الشمال والجنوب، ويمكن أن نؤدي خدمة للجانبين من موقعنا في منطقة دولية متفتحة على الخارج أكثر من غيرها.

هذه هي الأفكار التي كانت تروج في ذهني وأنا في طريق العودة إلى طنجة، حتى وصلنا إلى نقطة عرباوة حيث سلم شرطة الحماية الفرنسيون جوازات السفر إلى أصحابها من ركاب القطار وكانوا أخذوها لختمها بعد المراقبة، لكني بالخصوص لم يعيدوا إليّ جوازي وقالوا: إنهم سلموه لشرطة الحماية الإسبان وسيردوه هؤلاء إليّ... وشككت في الأمر فقد أخذ الإسبان جوازات الركاب وعند اقترابنا من منطقة طنجة سلموها فعلاً إلى أصحابها ولم يسلموني أنا جوازي، وسألتهم عنه فقالوا: إنهم لم يتسلموه من شرطة المنطقة السلطانية، ولعله يوجد لدى الشرطة الدولية في طنجة، وهي تسلمه إليّ عند الوصول، ولم يكن عند هذه الأخيرة علماً بجوازي ودخلت إلى المدينة بغير جواز لأني من أهلها وحسب.

وللذكرى والاعتبار أقول: إنني في هذه الرحلة نظمت قصيدة «آلام وأحلام» التي تحكي عن الإجراءات التعسفية التي مارستها السلطات بفاس ضد الوطنيين ومظاهرة الخنوع والمعاملة الدنيئة للأجنبي المتحكم في البلاد.



المدرسة الإسلامية الحرة
ومنشآت أخرى

عدت إلى طنجة وأصداء زيارة الأمير شكيب أرسلان لها لا تزال تتردد على الألسنة، وكانت زيارة خاطفة لا تتعدى يوماً واحداً، نزل بفندق فيلا دوفرانس، وما إن ألقى العصا واستقرت به النوى وأخذ يستقبل الزوار حتى جاءه إنذار من إدارة الأمن الدولي بوجوب مغادرته البلاد لصدور أمر بنفيه من مدير الإدارة الدولية للمدينة، ووقعت بينه وبين ممثل الأمن الدولي مشادات في الموضوع، وأنقذ الموقف حضور بعض الإخوان الذين صحبوه إلى دار الوزير الأسبق الحاج المهدي المنبهي الذي دعاه للغذاء عنده، وبعد ذلك توجه إلى تطوان عاصمة المنطقة الخليفية الخاضعة للحماية الإسبانية، حيث استقبل استقبالاً كبيراً وأقيم له حفل خطابي ممتاز، حضره أعيان البلاد وشبابها الوطني، ومن جملة من حضر من المنطقة السلطانية الحاج أحمد بلا فريج وهو الشخص الذي قيل لي في فاس أنهم سيرسلون من يتصل به ويدعوه لزيارة عواصم المغرب، ولكن السلطة الفرنسية لم تكن لتسمح بذلك، ونعتقد أن قرار نفيه من طنجة كان



بتدبير الفرنسيين وموظفيهم في الإدارة الدولية، فهم في مثل هذا الأمر ليسوا كالإسبانيين متشددين.

وعلى كلٍّ فقد كان تمديد إقامتي بفاس وعدم إسراعي بالرجوع إلى طنجة في محله، إذ لو كنت رجعت لما وجدت الأمير بها ولفاتني تتبع أحداث فاس إلى الأخير.

وعدت من فاس مثقلاً بالتكاليف والمهمات الخاصة والعامة التي كان الإخوان يحملونني إياها قبل المغادرة، وقد قضيت ما يجب قضاؤه منها وأديت ما يجب أداؤه، ومنه مراسلات خارجية بواسطة البريد الإنجليزي الذي كان لا يخضع لرقابة فرنسية، ولا سيما المبعوث منه عن طريق جبل طارق، ومنه إلى القاهرة كثير من الرسائل عن القضية البربرية وتطورها، وأخبار التظاهرة التي طالت أطول مدة متمثلة في قراءة اللطيف بالقرويين وغيرها من المساجد وما كان يحدث خلالها من تصرفات تعسفية إزاء المواطنين عامة والشباب المؤطر لهذه الحركة خاصة، وكانت مجلة الفتح الأسبوعية لمحيي الدين الخطيب[1] هي حاملة الراية في نشر تلك الأخبار والرسائل بكامل العناية، وكانت الجماهير تتلقفها بغاية التلهف، والسلطة تمنع رواجها فيزيد البحث عنها والرغبة في الحصول عليها بأية وسيلة. وكنا هنا في

---

(١) مجلة الفتح مؤسسها العلاّمة السلفي محيي الدين الخطيب سنة ١٩٢٥ بمصر، وكانت حاملة لواء الدفاع عن قضايا المسلمين في سائر أنحاء العالم. ولها يرجع الفضل في إذكاء روح الوعي بمسألة الظهير البربري في المغرب سنة ١٩٣٠ إذ كانت صفحاتها تحمل مقالات ضد السياسة الاستعمارية.



طنجة نتقبل أكبر عدد منها ونرسلها إلى الإخوان في الداخل حيث تتعرض الأعداد المرسلة إليهم للمصادرة، ولعل أكبر عدد وزع منها هو الذي نشرت به العريضة التي قدمها الوفد الفاسي إلى الملك بالرباط، فأرسلنا ما وصلنا منه بطنجة وما وصل لتطوان، وطلبنا مزيداً منه من القاهرة فأرسلناه كذلك بواسطة البريد الإنجليزي ومع المسافرين إلى فاس والرباط مباشرة بدون واسطة، وكان من التكاليف شراء العملة الأجنبية، وأكثرها كان الجنيه الإنجليزي والفرنك الفرنسي إذ كان سوق العملة بطنجة حراً، ومن هذه العملة ما كان يرسل إلى عناوين بالخارج وما يحتفظ به حتى يحضر من يتسلمه.

والواقع أن تعدد إدارات البريد بطنجة قد أفاد الحركة الوطنية إفادة كبيرة، ولا سيما البريد والتلغراف الإنجليزيين، وكان ثم البريد الإسباني وكنا نستخدمه في بعض الأحيان، وكان أخفض تعريفة، وكان قبل الحرب بريد ألماني، ولكن الحرب ألغته لما قطعت العلاقة مع ألمانيا وانسحب سفيرها من طنجة وألغيت السفارة الألمانية. وهذا طبعاً بالإضافة إلى البريد المغربي وكنا لا نأمنه لسيطرة الفرنسيين عليه، ولذلك كان يسمى البريد الفرنسي كما يسمى البريدان الآخران بالإسباني والإنجليزي، وبالجملة فالتكاليف والمهمات من هذا القبيل كانت كثيرة ودائمة، وهي من الأشغال التي تأخذ منا وقتاً كبيراً ولا بد من مباشرتها بالنفس دون واسطة للاطمئنان وضمان الثقة.

ونذكر بعد هذا قصة إنشاء المدرسة الإسلامية الحرة، والأمر قد يبدو الآن بسيطاً وقليل الأهمية، ولكنه في ذلك



الوقت كان من أكبر المغامرات لما يكتنفه من الصعوبات وما تحيطه به الإدارة حتى الدولية من العراقيل، كانت فكرة إنشاء مدرسة إسلامية حرة لمقاومة طغيان التعليم الأجنبي في طنجة من الأماني الوطنية البعيدة المنال، وفعلاً فإن الإدارة قد شددت كثيراً في أمر افتتاح هذه المدرسة ولولا ظروف استثنائية وتحمل المدير لمسؤوليته في افتتاحها دون سابق إنذار لما سمحت بها الإدارة في ذلك الوقت أصلاً، لقد شعرنا من مدة طويلة بوجوب قيام تعليم عربي إسلامي مقابل التعليم الأجنبي المتعدد الجنسيات الذي يقوم به في طنجة مسؤولو الجاليات الأوروبية من فرنسيين وإسبان وإيطاليين وأخيراً الأمريكان بلغاتهم المختلفة، وتشرف عليه البعثات الدبلوماسية الممثلة لبلادها في هذه المنطقة الدولية، وليس للعربية فيه حظ ولا نصيب، فأحرى ما عدا اللغة من تاريخ وجغرافية وإنسية مغربية وتربية روحية وخلقية، والمدرسة الوحيدة الخاصة بالأهالي، كانت هي المدرسة العربية الفرنسية التابعة لمديرية التعليم بالرباط، والتي لا تتجاوز مرحلة التعليم الابتدائي مع عدم التقيد بسن معينة، فقد يلتحق بها تلميذ في العاشرة والثانية عشرة والخامسة عشرة، وقد يبقى فيها التلميذ هذه المدة حتى لو التحق بها في سن مبكرة من أجل تكرير السنة الواحدة مرتين وأكثر، وليس لها من العربية إلا اسمها (فرانكو عرب) فدروس العربية فيها هي من تحفيظ بعض السور من القرآن الكريم من حزب «سبح» و«عم» فقط لا غير، وباقي التعليم كله بالفرنسية والأنسية الفرنسية، وغاية المتخرج منها بعد سنوات



عدة أن يكون موزعاً للبريد أو مأموراً في إدارة ما، وهذا إذا كان له حظ ونصيب ولوحظ بعين الاعتبار، وعلى أي حال فهو لا يستطيع أن يقرأ رسالة مكتوبة بالعربية وبالأحرى لا يستطيع تحريرها، ويقرأ قراءة ضعيفة بالفرنسية وقلّ أن يفهم ما يقرأ، نعم يتلقى الأوامر الشفهية، ولذلك فهو لا يستحق أكثر مما يناط به من عمل.

وفي إنشاء هذه المدرسة واجهتنا صعوبات كثيرة مادية وأدبية، مثل إيجاد المحل وتجهيزه بما يلزم من وسائل وأدوات، وقد استطعنا أن نتغلب على الصعوبات المادية بتعاون الإخوة: محمد أقلعي، عبدالسلام القصري، عبدالسلام الوزاني، محيي الدين الريسوني، عبدالسلام الزكاري، عبدالسلام ابن الطاهر، إذ تبرع كل واحد منا بمبلغ من المال، واستعنت ببعض المخلصين كالحاج عبدالواحد بناني على تهيئة اللوازم المشار إليها، فجعلته هو الذي يتكلف بكراء المحل ويتعامل مع النجار الذي صنع لنا الكراسي والسبورة، ويقتني ما تشتد إليه الحاجة في البدء من الأمور الضرورية، وذلك لئلا أظهر أنا ولا أحد من الإخوة المذكورين الذين يثيرون الانتباه في مباشرة أي عمل من هذا القبيل، وأعلمنا بالضرورة آباء التلاميذ الذين سيلتحق أبناؤهم بالمدرسة في اليوم المعين لافتتاحها، وهم ما بين متعلم في أحد الكتاتيب القرآنية أو في مدرسة من المدارس الأجنبية المشار إليها.

وهكذا خاطبت بعض الأصدقاء من طلبة العلم الذين توسمت فيهم الأهلية للقيام بمهمة التعليم، ومنهم مَن كان



خارج طنجة في عمل أو طلب للعلم، ولم يحل يوم الافتتاح ـ وكان يوم السبت ـ إلا والمدرسة قد برزت للوجود بالتلاميذ الذين قصدوها منذ الصباح الباكر، والمعلمون في الأقسام يؤدون واجبهم، والإدارة تسجل وتستقبل وتنتقل بين الأقسام متأكدة من سيرها على ما يرام، ومطلعة الزائرين الذين فاجأتهم المبادرة على المشروع الذي نفِّذ قبل أن يعلم به أحد.

وعلى كل حال فقد فتحت هذه المدرسة في الثاني من ذي القعدة عام ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م وكانت مؤلفة من فصلين لا غير، ولم يكن رأس المال الذي جهزت به يجاوز ٥٠٠٠ فرنكاً تبرع بها عشرة من المواطنين الأعزاء، ثم ما زال المشروع يكبر والعمل يتسع حتى استتمت المدرسة فصولها الابتدائية الستة، ووجد بها في بعض الأوقات فصول ثانوية أخرى، ومنها فصول الدراسة الليلية المتنوعة.

ومنهاج الدراسة بالمدرسة عربي خالص ومواده هي مواد الشهادة الابتدائية المعروفة، يضاف إليها القرآن الكريم الذي تحرص المدرسة كل الحرص على تحفيظه بأجمعه، أو تحفيظ أعظم جزء منه للتلاميذ، ثم هي تعطي دروساً في اللغة الإسبانية واللغة الفرنسية لتلاميذ السنوات الابتدائية الأربع، وبهذه الدروس تمكن لتلاميذها فيما بعد الدخول إلى المعهد الرسمي الثانوي بتطوان الذي تعتبر اللغة العربية في سنواته الثلاث الأولى اللغة المفضلة، فيمكن للتلاميذ مواصلة الدراسة فيه ولو بقليل من معرفة الإسبانية، فقد راعت المدرسة جميع الإمكانيات التي تجعل تلميذها مستعداً



لمواصلة تعليمه في المدارس العصرية أو المعاهد الدينية إذا لم ينقطع للاشتغال بأي عمل آخر فيكون قد تنوّر فكره وتهذّبت مشاعره ولم يبقَ راعياً مع الهمل.

وساعد على نجاح المدرسة في اليوم الأول وقوعها في مركز متميز بوسط المدينة بين حي القصبة وحي مرشان وأحياء المدينة الأخرى، ثم كون البناية التي اخترناها لها تقرب كثيراً من تخطيط مدرسة، إذ اشتملت على قاعات فسيحة أرضية بينهما فراغ منه ما هو مغروس بأنواع الرياحين والأشجار الخضراء التي تزيد منظرها بهجة وجمالاً، وهي بناية كان صاحبها يريد أن يجعلها استراحة سياحية، ولكنه لم يستطع أن يُكسبها هذه الصفة فعلاً، وفتح فيها مقهى ومطعماً لم يلاقيا قبولاً فاكتريناها منه، وهو لا يدري ما نريده منها، وكانت عزيمته قد فترت، فصار يريد التخلص منها بأية وسيلة.

وفي غمرة الفرح بافتتاحها قضينا يومَيْ السبت والأحد في سرور ونشاط متواصل، ويوم الإثنين الموالي جاءتني دعوة للحضور بالمندوبية السلطانية، وكنت أتوقع هذه الدعوة ولا سيما ومنذ يوم الافتتاح والجواسيس والمخبرون السريون لم يفتأوا يمرون أمام المدرسة متوقفين متأملين متفرسين في وجوه العاملين بها والزائرين لها، وقد لبيت الدعوة فقابلني المندوب وهو السيد الحاج محمد فتحا التازي، وسألني ما هذا العمل الذي أقدمت عليه بدون سابق إعلام ولا إنذار للجهات الرسمية؟ قلت: إنه كتاب قرآني منظم ولا زائد، قال لي: إنهم يقولون: إنها مدرسة كاملة التجهيزات، قلت:



وهب أنها مدرسة كما يقولون، فماذا في فتح مدرسة من ضرر على أحد إن غضضنا النظر عن منفعتها؟ قال: إنهم يقولون: كان عليك قبل كل شيء أن تطلب الإذن بفتحها، قلت: ما خطر ببالي أن مدرسة تعليمية تحتاج إلى إذن بفتحها... وكان يخاطبني وهو على ما يظهر غير مقتنع بما طلب منه أن يبلغني إياه، ولذلك ختم الحديث بأنهم لا ينظرون إلى الأمر بهذه البساطة، وانصرفت من عنده وأنا أعتقد أن القضية لم تنتهِ.

وبعد غد نودي عليّ أيضاً للحضور عند المندوب، فوجدت أن الجو ما يزال متلبداً، وأخبرني أن لا معارضة في إنشاء المدرسة، ولكن لا بد من احترام القانون ونفوذ الحكومة وذلك بطلب إذن سيكون الجواب عنه بالموافقة ولا بأس في ذلك. فأجبت: ليس هناك قانون يجبرني على طلب هذا الإذن، وأنا أحترم القانون ونفوذ الحكومة ولم أخالف قط هذا المبدأ في عمل من الأعمال، ولكن إذا لم يكن هناك تشريع بهذا الصدد فإنا لا نُلزم أنفسنا بما لا يلزم.

وانتهت المقابلة على هذا الشكل، وبعد يومين آخرين استدعيت للمرة الثالثة إلى المندوبية، فقال لي المندوب: إن هناك قانوناً خاصاً بفتح المدارس وبعض المؤسسات الاجتماعية، وقد أتوا بهذا المجلد المحتوي على ذلك القانون وهو بالفرنسية، وقد ترجموا المادة المتعلقة بالموضوع إلى العربية، وناولني المجلد فإذا هو جزء من مجموعة TRATADOS CODIGOS والمادة التي ترجموها



تفيد الأمر الذي يريدون، وترجموا أيضاً المادة التي تنص على عقوبة المخالفة بذلك، فطلبت منه أن آخذ المجلد وأطلع على القانون كله وأجيب بعد ذلك بما يجب، فقال لي: إنهم شرطوا أن لا أسلمه لك، فقلت: لا يهم، أنا سأبحث الأمر وأعود إليك.

وبحثت عن الكتاب فوجدته في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي فاستعرته منه وراجعت القانون المشار إليه، فإذا هو متعلق بالأجانب لا بالمواطنين، ويشترط في المعني بالأمر شروطاً لا تتوفر في المغاربة، فترجمت له القانون بنصه الكامل ورجعت إليه، وأطلعته على فصوله التي لا تشمل مسألتنا بحال، وقد سُرَّ بذلك، وقال لي: أتيتني بما أبطل به دعواهم ولا تبالِ بهم.

ثم استدعيت للمرة الرابعة، وفي هذه المرة استقبلني الخليفة الأول للمندوب السيد عبدالقادر بوحساين ـ وأنا داخل للجناح الذي يوجد فيه مكتب المندوب، فقال لي: أنا الذي سأستقبلك اليوم نيابة عن سعادة المندوب، فذهبت معه إلى مكتبه، فقال لي: لِمَ تمتنع عن كتابة طلب بالإذن أو على الأقل بإعلام السلطة أنك تفتح مدرسة من نعتها وصفتها كذا وكذا. . . وأنا أعلم أن المدرسة مأذون بها، وإنما هي شكليات لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في الأمر؟ فقلت له: إنك من أهل العلم وسأبين لك سبب امتناعي، وهو قوله عليه السلام: **«مَن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»**، فمن المحتمل جداً أن يقوم أحد المواطنين غداً أو بعد غد بتأسيس مدرسة فيقال له: قبل كل



شيء يجب عليك أن تستأذن السلطة في ذلك، فإذا قال: لا قانون يلزمني بذلك، فيجاب بأن فلاناً هكذا فعل وهذا طلبه أمامك، فلم يجد جواباً وخرجت من عنده كما دخلت.

وبعد ذلك طلبت للمرة الخامسة للمندوبية، فوجدت مع المندوب المراقب الفرنسي طروشي والخليفة الأول والخليفة الثاني وهو ابنه، والترجمان وهو جزائري، وهذان كانا واقفين من ورائي في مقابلة المندوب، فقال لي المراقب: إنك فتحت مدرسة بدون أن تُشعر السلطة، فقلت: وهل وهذا ذنب؟ هل هناك قانون يوجب عليّ ذلك؟ وقد أكثرتم عليّ عسى أن أمل وأطلب الإذن أو أترك هذه المدرسة، فإن كنتم تريدون هذه النتيجة فأنا ذاهب الآن وأسرّح التلاميذ وأوصيهم بإعلام أوليائهم أن السلطة منعت هذه المدرسة، وآخذ المقاعد وسائر الأدوات وأبيعها في الجوطية[1] بالبخس وأنتهي من هذا الصداع. فقال المراقب: لا نحن إنما نريد المحافظة على النظام، فقلت: هل النظام هو أن تبقى المدارس القرآنية محل شبيه بالبهموت[2] مفروشة بحصر بالية يمر بها السيّاح فيصورونها ويذهبون إلى بلادهم فيطلعون عليها أهليهم وأصدقائهم ويقولون: هذه هي المدارس في بلاد الحماية الفرنسية؟ فاغتاظ وصار يهرج، فقلت: لا ترفع صوتك هكذا فيظن الأعوان والمخازنية خارج هذا المكتب أنك تخاصمني، وكان يجلس بجنب المندوب مواجهاً لي، فجعل المندوب يحرضني عليه

(١) مكان عمومي لبيع الأشياء المستعملة.

(٢) البهموت: كل مكان مظلم.



بالإشارة من عينيه من تحت النظارة، وأجاب هو بأن هذا صوتي الطبيعي، فقلت له: أنا أيضاً صوتي الطبيعي رفيع ولكنا في مكتب نائب صاحب الجلالة فلا بد من الكلام بأدب وهدوء، فقال: إنك تشيع في المدينة أن المندوب معك وأنا الذي أعارض في وجود هذه المدرسة، فقلت له: وفعلاً مَن الذي يناقشني فيها الآن؟ فأنكر وقال: لا مانع من وجود مدرسة قرآنية حرة كما سميتها، وإنما نريد أن نتعاون معك ونمدك بما تحتاج إليه في تسييرها وتجهيزها، فقلت له: أشكرك على هذه العناية واستأذنت من المندوب وخرجت، وكانت هذه آخر مقابلة في هذا الموضوع.

كان لهذا الموقف صدى بعيد في أوساط السكان على اختلاف الطبقات، أعطى للمدرسة قيمة كبيرة وأحاطها باهتمام المواطنين، وكان الانتصار الذي انتهت به هذه المضايقة مما خلف ارتياحاً عميقاً في نفوس الشباب ورجال الوطنية الذين جاؤوا لتهنئتي بالثبات الذي أفشل الخطة المدبرة للقضاء على المشروع التعليمي الوطني وأفسح المجال لأعمال أخرى كانت الحركة الوطنية تفكر في القيام بها وإخراجها من حيز النظر إلى حيز الفعل.

ولكن صعوبات أخرى أدبية كانت تعترضنا، وهي من نتائج التخلف الفكري والوقوف مع التقاليد، منها أنني كنت جعلت قراءة القرآن وحصة حفظه ساعة في الصباح وساعة في المساء، وجعلت الحصة المقروءة في كل فصل واحدة سواء كانت بضع آيات أو أثماناً أو أرباعاً ليتمكن المعلم من ضبط الفصل ويحصر عمله في مجال واحد، وليكون تلقين

التلاميذ لمادة مشتركة بينهم باعثاً على استظهارها وسرعة حفظها، وجعلت القراءة في الخمسات المطبوعة فما دونها بالنسبة إلى الصغار وذلك اغتناماً للوقت الذي كان يذهب في كتابة اللوح ومحوه بعد الحفظ، علماً بأن كتابة القرآن وخطه يخضعان لضوابط وقواعد خاصة، فحتى لو أتقنوها لا يستعملونها في الكتابة العادية، ومن ثم يقال: إن خط القرآن لا يقاس عليه، وباختصار فإن المعلم حين يفتتح القراءة والتلقين يفتتحها مع جميع تلاميذ الفصل فيقرأون جماعياً بلسان واحد مع المعلم ما يلقنهم إياه من سور وآيات ثم يجعلهم يحفظونها منفردين، ثم يأمرهم بقراءتها مجتمعين من غير أن يتدخل المعلم إلا إن أخطأوا في لفظ وهكذا ترسخ الحصة الملقنة لهم في ذهنهم بالتلقين والنظر في الخمسة واستماع بعضهم لبعض، وهذا خلاف ما تعوّده معلمو القرآن من إقراء كل واحد على حدة وتفرده بحصة غير حصة الآخر، فضلاً عن اختزال الوقت الذي يذهب في الكتابة والمحو وما إلى ذلك، وقد أعطت هذه الطريقة نتيجة باهرة في التحفيظ وعلى الأقل في المرور بالقرآن الكريم وحفظه كله أو بعضه إذ كانت موزعة على الفصول ترقياً من ربع إلى ربع حتى تستوعب أرباع القرآن كلها في السنوات الأربع الابتدائية إضافة إلى ما لقن في القسم الإعدادي، وعلى الأقل إن لم يحفظ التلميذ القرآن حفظاً جيداً فإنه يتمرس بالكتاب العزيز ويقرأ آياته الكريمة على الوجه الصواب ولا يلحن فيها كما يقع من كثير من القارئين.

نعم إن هذه الطريقة أثارت اعتراض كثير من رجال



الغيرة على الطريقة القديمة، واستنكروا إلغاء الألواح وحفظ القرآن من الخمسات، وخاطبني في ذلك عدد من الناس وبعض الطلبة تطوعوا بأن يقابلوا التلاميذ وتحفيظهم ومباشرة العمل في تكتيب التلاميذ بالألواح وما يتبع ذلك، ولم يفهموا أو لم يهضموا ما في ذلك من ضياع الوقت والتضييق على حصص العلوم التي يجب أن يتلقاها التلاميذ في ساعات النهار الباقية.

ولكن هذه التعليقات كانت بمثابة سحابة صيف سرعان ما انقشعت وسارت الأمور على ما ينبغي واكتسبت المدرسة شهرة وسمعة بحيث بدأ التلاميذ يفدون عليها من نواحي المدينة ومن المنطقة الخليفية ولا سيما من أبناء بعض الأعيان الذين يؤمّن أولياؤهم لهم أمكنة الإقامة والنفقة.

ظلت الدراسة بالمدرسة من يوم تأسيسها قائمة في روض صغير تحتله بالكراء، ولما كان البناء الذي فيه غير كاف لجميع أقسام الدراسة فإن المدرسة كانت غير متمكنة من تطبيق برنامجها كما يجب، ولذلك لما سنحت الفرصة لفتح اكتتاب عمومي قصد إقامة بناية صالحة للمدرسة اغتنمناها وتألفت لجنة لهذا الغرض مكونة من أنصار المدرسة: عبدالسلام الزكاري، عبدالقادر برادة، مولاي عبدالسلام الوزاني، الفقيه عبدالقادر المؤذن، واشتغلت هذه اللجنة بنشاط مدة عام حتى تجمع لديها ما أمكن به شراء قطعة من الأرض بقعة ممتازة بين مرشان والقصبة قرب الروض الذي كانت به المدرسة.

وكان بعض الآباء يرغبون في إلحاق البنات بإخوتهم



الذكور بالمدرسة، ولكني كنت أسوفهم إلى وقت لاحق، ولم أستطع إلا أن أخصص فصلاً لهؤلاء التلميذات، وذلك كله خوفاً من رد الفعل في المجتمع المحافظ جداً والذي لم يقبل تعليم القرآن بغير الألواح والطريقة المصطلح عليها من قديم، وأخيراً بدأ الإلحاح على بناء مدرسة مستوفية للشروط الكاملة، ومنها جناح للبنات، ففتحنا اكتتاباً ـ كما سبق ـ لشراء قطعة أرض تبنى عليها المدرسة، ونجح الاكتتاب واشترينا الأرض المطلوبة وانتقلنا إلى فتح اكتتاب آخر للبناء ونجح نجاحاً باهراً، واشترك فيه سمو الخليفة السلطاني كما أمدنا فيه جلالة الملك المرحوم سيدي محمد بن يوسف قدّس الله روحه بمبلغ مهم، وسارت عملية البناء على ما يرام، وانتهينا من البناء الذي دشّنّاه عند زيارة صاحب الجلالة لطنجة عام ١٩٤٧ وبحضور سمو ولي العهد ورجال الحكومة من وزراء وغيرهم، واحتفظت بطرف من القطعة الأرضية بنيت عليها فيما بعد مدرسة خاصة بالبنات مستقلة وقع عليها إقبال كبير.

وكانت المدارس الحرة بالمنطقة قد انتشرت في مختلف المدن وحصلت على اعتراف الحكومة بها، وخصصت مندوبية التعليم بالرباط لها إعانات مالية لا بأس بها.

ولا ينتهي الكلام على المدرسة والمشاكل التي كنت أعانيها في إدارتها وتسييرها من أدبية ومادية، ومنها على سبيل المثال اختطاف المعلمين، إذ لا ينجح معلم من الطلبة الذين أعمل على تكوينهم وتظهر نجابته حتى يتصلوا به



ويغروه بالأجرة المجزية لينتقل إلى المدرسة الحكومية ويأتيني يستشيرني فأشجعه ولا أمانع أبداً في ذهابه، وإن كان بعضهم يُظهر لي أنه يفضل البقاء معي على المرتب المغري، فأقول له: إني لا أجد صعوبة في وجود طالب آخر، ولكنك لا تجد فرصة لتقاضي مرتب محترم مثل هذا، والمهمة التي تقوم بها هناك هي أخت التي تقوم بها هنا، وهكذا اختطفوا مني عدداً من المعلمين المكونين جيداً، ومن المشاكل التي اعترضتني كثيراً وهي تزاحم أبناء الفقراء على الالتحاق بالمدرسة من غير قدرة على أداء الأجرة وشراء الأدوات، وأحكي على الظن لا الحصر أن قراباً كان له ولدان فهو قد طلب أن لا يؤدي أجرتهما كاملة بل ٧٥ في المائة فقط، أي: ١٥ فرنكاً شهرياً، وذات يوم جاءني بزميل له معه ثلاثة أبناء ذكران وبنت، وطلب أن أخفض له الأجرة الشهرية إلى ٢٠ فرنكاً عن الأبناء الثلاثة، فقلت له: إن هذا إجحاف كبير في حق المعلمين، وفي الكتاتيب القرآنية البدائية تؤدى أكثر من هذا، وأنا عندي مصاريف ومعلمون ومقرؤون وخلاف ذلك، فقال لي القراب القديم(١): والله يا سيدي إننا نتحدث بذلك، ونقول: لا شك أن هناك (جني) يصب فيه وإلا فكيف يقدر على تدبير أمور هذه المدرسة.

فسعيت في استخلاص معونة مماثلة من الرباط ولكني لم أنجح، ونصحتني مندوبية التعليم بطلبها من حكومة

---

(١) القرّاب: الذي يحمل الماء في القرابة ليوزعه على الدور السكنية بمقابل مادي.



طنجة، ففهمت أن الفرنسيين لم يوافقوا على صرف الإعانة إليّ لكراهتهم لي ولطنجة، وفكرت في حكومة طنجة ما هي؟ إن كانت هي المندوبية السلطانية، فأنا أعلم أنها لا ميزانية لها وهي تستخلص أجورها من الرباط، والرباط على رفضه لمبدأ الإعانة لمدرسة حرة في طنجة، وإن كانت هي الإدارة الدولية فأنا لا أقبل أن أطلب إعانة من أجانب لو كانوا يمنحونها، والظن القوي أنهم لن يفعلوا. فوقع في وهلي أن ألجأ إلى المجلس التشريعي الذي كان في النظام الدولي بمثابة برلمان لطنجة، وفعلاً كتبت لهذا المجلس وبيّنت له أن هذه الإعانة موجودة في المنطقة السلطانية وأن مندوبية التعليم هناك تصرفها للمدارس الحرة منذ سنين، وخاطبت بعض أعضاء المجلس في مساندة الطلب، ولما عرض الطلب على المجلس أيّده كثير من الأعضاء وطنيون وأجانب، لكن العضو الفرنسي (أرماند) عارضه بشدة وقال: ما هي هذه المدرسة، وما هي أطرها وما يتخرج منها إلا شباب مشحونون بكراهية الأجانب ومعارضة الحكومة، وكان أرماند هذا مشرفاً على التعليم الفرنسي بطنجة من قبل إدارة التعليم بالرباط، وتقع تحت نظره المدرسة العربية الفرنسية التي سبق الكلام عليها ونظيرتها في تطوان والعرائش، وأعلمني أعضاؤنا في المجلس بالأمر فأرسلت برقية احتجاج للمجلس ونسخة منها للقنصلية الفرنسية العامة بطنجة وأخرى للمندوب السلطاني، ومما قلته في هذه البرقية أن التعليم الذي لا نتيجة له بالمرة هو التعلمي الذي يشرف عليه مسيو أرماند، فلقد حضرت تدشين مدرسة للبنات من هذا القبيل



سنة ١٩٢٨، ونحن الآن في منتصف الأربعينات لم تتخرج من هذه المدرسة بنت واحدة، وأما الأولاد الذكور فإن أكثرهم يعيدون السنة التي يكونون فيها سنتين وأكثر وليس ذلك من قلة تحصيلهم، ولكنه من المعوقات التي توضع في طريقهم لمنع التحاقهم بالليسي رينيو، فإن الشهادة الابتدائية لا يحصل عليها إلا بعد بلوغهم السن التي تمنع هذا الالتحاق.

وكان من وقع هذه البرقية على أرماند أن أمر مديرية مدرسة البنات أن تعمل على تهييء بعضهن لنيل الشهادة الابتدائية في تلك السنة، وكانت السنة قد أشرفت على الانتهاء، وكان من وقعها أيضاً أن عاد المجلس لدراسة مسألة الإعانة وقد قرر مبدأ التعليم الحر بطنجة وقدّر هذه الإعانة بعشرين مليون فرنك، وصرف جلها لمدارس البعثة الكاثوليكية الإسبانية ولمدارس الاتحاد الإسرائيلي، ولمدارس أخرى أجنبية، وأبقى للمدرسة المغربية مليونين اثنين فقط لا غير، والحقيقة أنه لولا مساندة أعضاء المجلس المختلفي الجنسيات للطلب لما أقرت الإعانة، ومساندتهم هذه كانت لفائدة مدارسهم. واللعبة لم تتم، فقد كتب لي المسؤول عن الشؤون الاجتماعية وهو فرنسي في الإدارة الدولية يخبرني بإقرار الإعانة التي طلبتها، وللحصول على القدر المخصص للمدرسة يجب الإدلاء بمعلومات تتعلق بالمدرسة وتاريخها ونظامها وهوية مديرها وأطرها والشهادة التي يحملونها ومن أي معهد أو كلية تخرجوا... إلخ، فأجبته بما أقامه ولم يُقعده من مثل أن هذا فضول منه وأن



المجلس لما قرر إصدار الإعانة لم يربطها بتاريخ ولا برامج ولا بهوية العاملين بها، وقلت: إن هذه الأطر متخرجة من المعاهد والكليات ومدارس المعلمين التي أسستها الحكومة الفرنسية والإدارة الدولية بالمغرب وطنجة وما إلى ذلك من عبارات التهكم والاستهزاء، وكان هذا الجواب بمثابة قطع الطريق على الإعانة أن تصل إليّ، لأن غيظ الموظف الدولي تفاعل مع حقد أرماند فكوّنا ستاراً من حديد بين المدرسة والإعانة، وكان أن تدخلت الإدارة الدولية والقنصلية الفرنسية مع موظفي المندوبية السلطانية وأنشأوا مدرسة أسندوها لبعض من يحظى برضاهم، وأنفقوا عليه أولاً من نظارة الأوقاف، ثم أعطوا المليونين لصاحبها ومضى الأمر على ذلك إلى حين الاستقلال. وهكذا كنت سبباً في إنشاء مدرسة عربية بدون طلب إذن ولا مناقشة دامت نحو أسبوعين، وزكت طنجة مدرسة عربية ثانية على كل حال.

ولم تنتهِ الملاحقة الفرنسية لهذه المدرسة الصغيرة، بل إن إدارة التعليم في الرباط أرادت أن تستخدم معي أسلوباً آخر في التخلص من المدرسة التي أقضّت مضجعها، وخلاصة القصة أن مراقب الولاة المخزنيين الجديد، وهو مسيو كرابيني اتصل بي وطلب مقابلتي فحددت له وقتاً يزورني فيه بمنزلي، وكان شخصاً لبقاً مستعرباً تولى منصب مستشار في أول عهده بالمغرب بالاستئناف الشرعي وكان قبل ذلك مستشاراً في تمثيلية بلاده بسوريا، ولما قابلته قال لي: إنه كلف بالتفاوض معي في أمر أكد لي أنه لا يد له فيه، وإنما هي مهمة انتُدب لها من الجهات الرسمية، وقبل



أن يفضي بها إليّ عاد إلى تأكيد هذا الأمر ويهمه أن أظن به الظنون، فقلت له بدون أي تأكيد: أنا أحمل كلامك على الجدية وأن ظاهره كباطنه، فقال: إنهم يعرضون عليك أن تكري لهم مدرستك وبأي ثمن تطلبه، فقلت متعجباً: أكري لهم مدرستي؟ قال: نعم، قلت: وماذا يجعل مدرستي بهذه القيمة في أعينهم؟ قال: إن قيمتها كبيرة، فهي في موقع ممتاز، وبناؤها متوفر على صفات المدرسة الراقية. قلت: والتلاميذ والمعلمون إلى أين؟ قال: إنهم سيبقون في المدرسة ويعامَلون معاملة حسنة. قلت: وأنا إلى أين أذهب؟ قال: إنك ستأخذ إيجارك الكافي وتستريح من التعب، قلت: ومَن هم الذين ستكون معهم المعاملة في هذه القضية؟ قال: إدارة المعارف بالرباط. قلت: هم أصحاب الفكرة؟ قال: نعم، قلت: وإذا لم يفوا لي بالشرط وامتنعوا من دفع الإيجار؟ قال: لا، هذا لا يكون، فالعقد الذي تمضيه معهم سيكون قانونياً ملزماً لهم بكل وجه.

وفكرت قليلاً ثم قلت له: ولمَ لا يشترونها مني ويدفعون لي الثمن قبل تسليمها لهم؟ وآمن من كل إشكال؟ قال: هذا أحسن، وأظن أنهم لم يخطر على بالهم إبرام صفقة مثل هذه، وإلا فهي أفضل بكثير من فكرة الكراء.

وهنا قلت له: مسيو كرابيني، إن المدرسة هي أولاً ليست لي وإنما هي ملك للشعب الذي تبرع بما اشتريت به الأرض وما بنيتها به، ثم إني وثلة من إخواني في المنطقة السلطانية شعرنا بما في التعليم الرسمي الذي تشرف عليه إدارة المعارف من خطر على مستقبل أبنائنا من حيث بناؤه على هدم



شخصيتنا المغربية العربية الإسلامية وعمله على إدماجنا في الكيان الفرنسي فلا وجود للعربية فيه ولا للقيم الأخلاقية والروحية التي تشخص ذاتنا، ولا ذكر لتاريخنا وماضينا المجيد وحضارتنا المتميزة، ولذلك قمنا بإنشاء تعليم حر يتدارك ما فات ويعوض ما ضاع ويبعث ما أُقبر، ونحن نتحمل في ذلك المشاق العظمى التي لا ننتظر عليها جزاءً ولا شكوراً، وحرصي على هذه المدرسة كحرصي على استمرار حياتي، وهذا واجب من واجباتي الدينية والوطنية. . . وسألته: هل يهضم هو أن تكون ألمانيا أقامت في بلاده وحوّلت التعليم فيها إلى الألمانية مادة وروحاً إلى ما يتبع ذلك من مسخ للشخصية الفرنسية واضمحلال للغة الوطنية وإدماج للشعب الفرنسي في الشعب الألماني؟ فقال: لا. قلت: هل تقول لا؟ قال: نعم أؤكدها. قلت: وكذلك نحن، فوطنيتنا لا تقل عن وطنيتكم ونزيد بالروح الدينية المتغلغلة في أعماقنا.

ولهذا يا مسيو كرابيني، فعملنا من أجل بلادنا لا يكرى ولا يباع، وأزيد إنك وقد فهمت خطتنا وقدّرتها حق قدرها، إذا أصبحت مديراً للمعارف وحوّلت هذا الاتجاه الخاطىء في سياسة التعليم إلى الاتجاه الصائب، فإني سآتيك بمفاتيح المدرسة مجاناً من غير كراء ولا بيع وأستريح حقاً من التعب. قال لي: أنا لا أتولى إدارة المعارف ولا غيرها، ووظيفتي في وزارة الخارجية محفوظة وتحت طلبي متى أردت. ولقد تقبل ملاحظاتي باقتناع، وقال لي: هل اطمأننت إلى أن الفكرة ليست فكرتي، فقلت: كل الاطمئنان.



هل كفّ الملاحقون؟ لا. إنهم اشتروا منزلاً كبيراً كان في ملك أرملة يهودية، وهي تعيش وحدها متضايقة من العزلة، وعرضت عليّ شراءه منها أكثر من مرة، وهو ملاصق للمدرسة ومطل عليها، وقالت لي: إنك تستطيع أن تراقب المدرسة منه، نعم! اشتروا وأنشأوا فيه مدرسة من طراز مدارس فرانكو عرب لأبناء الأعيان.

ولعل أغرب ما يذكر في مقاومة الاستعمار لهذه المدرسة هو ما لقيته على يد مَن كان من حقهم أن يدافعوا عنها ويعطفوا عليها من أبناء الملة والمواطنين. ونعني نموذجاً من العدول المتحككين برجال السلطة الأجانب والمتملقين لهم، فهذا شاهد متين الصلة بالمفوضية الفرنسية، وهو الذي يختارونه لتحرير شهاداتهم وشهادات المنتمين إليهم، كان رسم القطعة الأرضية تحت يده والأرض في أصلها ملك لأحد متمولي اليهود بالشركة مع موظف كبير من موظفي المخزن، وهو الذي تلقى شهادة البيع من مالكها والشراء من اللجنة التي كلفتها بعملية الشراء، لما علم بعد ذلك أنها ستتخذ أرضية لمدرسة حرة، تباطأ بكتابة الرسم متذرعاً بأنه لا يعلم المشتري ولا كيف تحرر هذه الشهادة، ولا بد من شهادة بإنابة هذه اللجنة في الشراء عن فلان وغير ذلك من التمحلات التي ظن أنه يعرقل بها المشروع ويتقرب إلى أوليائه، وهو كان من العلم والفطنة بحيث لا يخفى عليه شيء من أمر الشهادة، وتحت ضغط اللجنة حررت له الوثيقة المطلوبة فزاد تمنعاً ومكراً، وقال: هل أنا محتاج لمن يلقنني كيف أحرر شهادة ما، وكان زميله أعني العدل الذي هو الشاهد الثاني، بخلافه في



هذا الأمر ولكن المعول عند البائعين على الأول والرسم كان عنده، وبعد اليأس منه أشرت على اللجنة بالكف عن مطالبته بتحرير الشهادة، وشرعنا في البناء بعد وضع التصميم الذي عرضنا مخططه في واجهات بعض المحلات التجارية للدعاية والإعلان، وتمّ البناء ولم نتمكن من حيازة الرسم الذي بقي الفقيه العدل يراوغ في كتابته، فكتبت في قبة مدخل المدرسة هذه الأبيات:

مـدرسـة الإسـلام والـعـروبـة
والـنـهـضـة الـعـلـمـيـة الـمـرغـوبـة
أنـشـأهـا گـنـون عـبـد الله
عـلـى الـتـعـاون وتـقـوى الله
وهـي عـلـى الـتـعـلـيم وقـف خـالـد
والله فـي ذلـك نـعـم الـشـاهـد

وقد صار هذا العدل بعد ذلك يراودني على كتابة الشهادة وتسجيل الرسم وإنهاء الإجراءات اللازمة فأعده بذلك، وأخيراً، أخبرته بأنها قد كتبت، فقال لي: كيف ومتى؟ قلت له: إنك لم تحضر حفل التدشين الرسمي للمدرسة الذي كان برئاسة سمو ولي العهد مولاي الحسن، ولم تزر المدرسة لتقرأ رسم التملك والوقف المكتوب بمدخلها في دائرة القبة اللطيفة المقامة فوق هذا المدخل.



